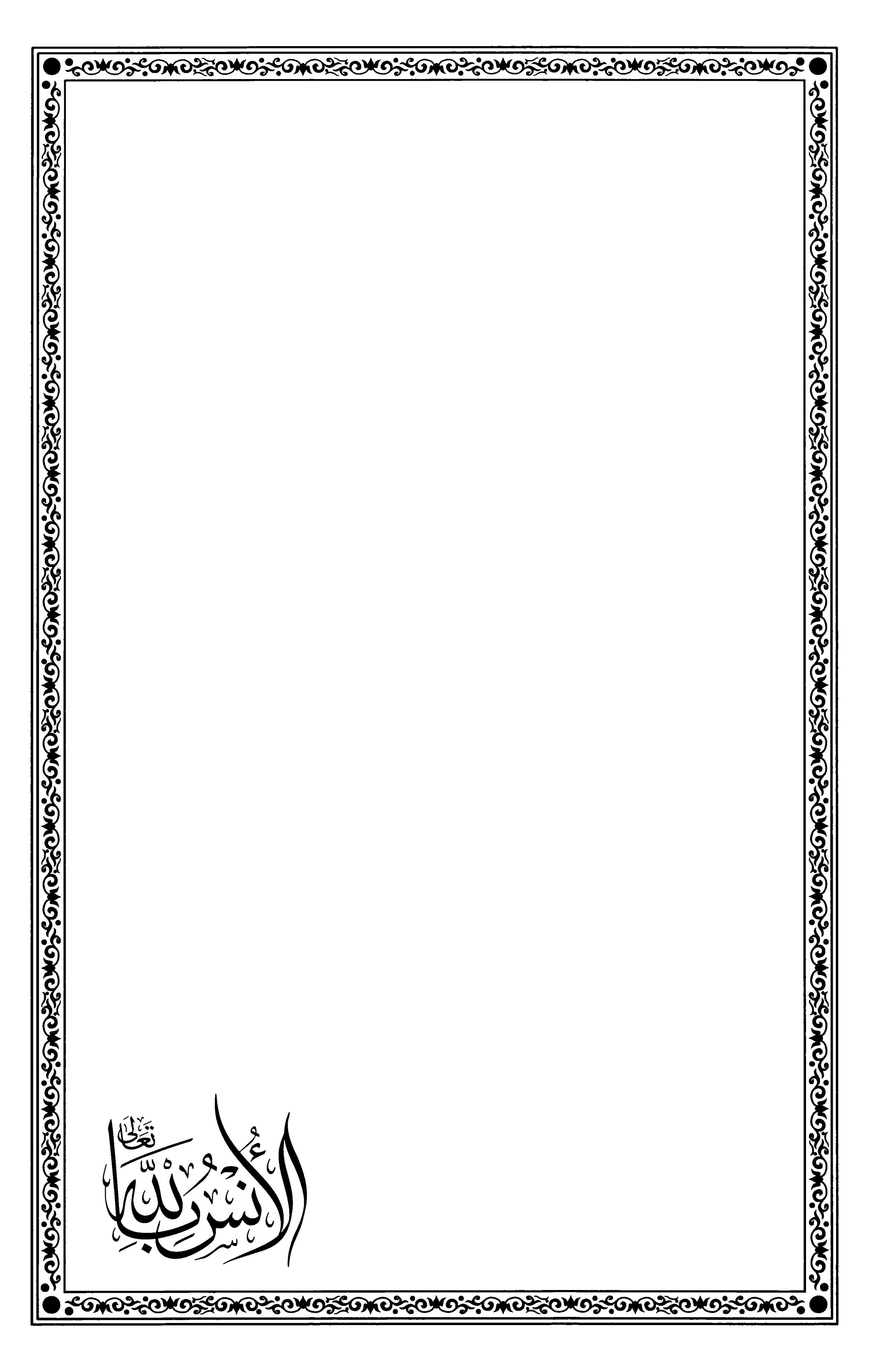
الطبعة الثانية








الأُنس بالله تعالى



عنوان المصنف: الأنس بالله تعالى

تأليف: أحمد بن ناصر الطيار

رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٩٨١٤

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٠٤-٠٤٩-٤

الطبعة الثانية

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م



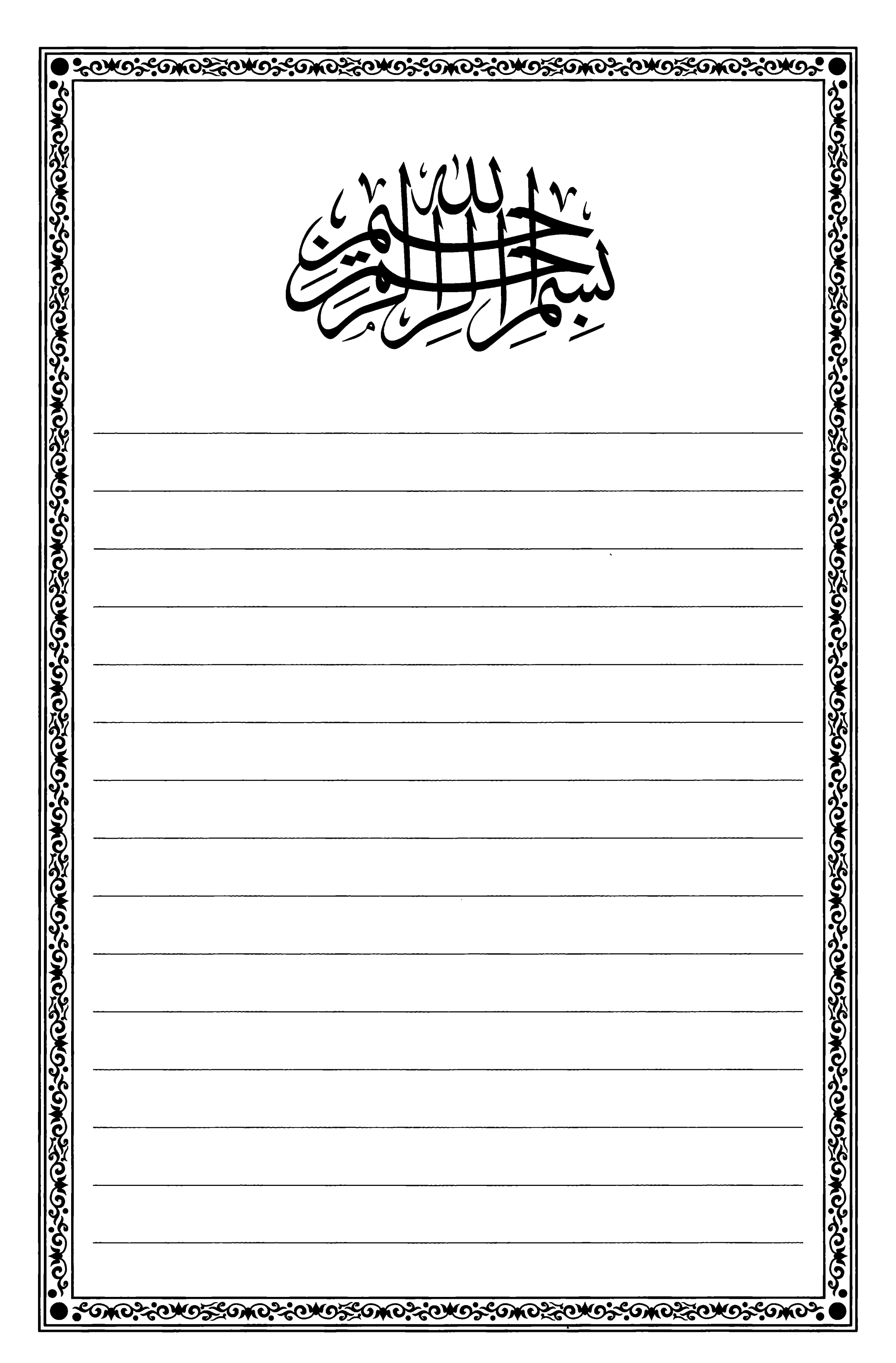
المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع السويدي العام - شرق النفق
الإدارة والمبيعات جوال ـ ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ ـ ٠٠٩٦٦٥٦٥٦١١٥٠٥٨ ـ ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ ـ ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ ـ جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة - ٦ ش المدرسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ ـ ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ ـ فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩
البريد الإلكتروني: d.alhijaz@gmail.com

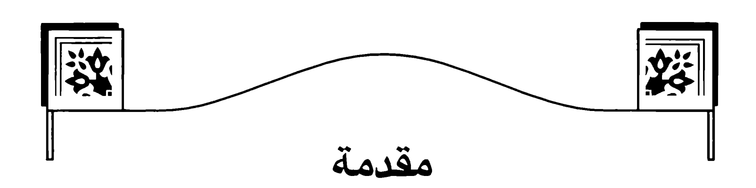
الأنس بالله تعالى

تأليف






بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَقَيُّومُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ، صلَّى اللهُ وسَلَّم عَلَيْه، وعلى آلِه وأصْحابِه أجمعين، **أما بعد:**

فإنّ الأنس بالله تعالى أعظم لذةٍ وحلاوةٍ في هذه الحياة، به تطيب النفس، وينشرح الصدر، ويقوى المؤمن على تحمّل مصائب الدنيا، ويسهل عليه القيام بالعبادات والطاعات.

والأنس به سبحانه: مقام رفيع عظيم، ومنزلة شريفة كريمة، ويُقصَدُ به الفرح، والسرور، والطمأنينة بالله تعالى، وهو أعلى مِن الأنس بما يرجوه العابد من نعيم الجنة.

«وَالْأُنْسُ بِاللهِ: حَالَةٌ وِجْدَانِيَّةٌ، وَهِيَ مِنْ مَقَامَاتِ الْإِحْسَانِ، تَقْوَى **بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:**

١ ـ دَوَامُ الذِّكْرِ.

٢ ـ وَصِدْقُ الْمَحَبَّةِ.

٣ ـ وَإِحْسَانُ الْعَمَلِ.

وَقُوَّةُ الْأُنْسِ وَضَعْفُهُ: عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ الْقُرْبِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ

مِنْ رَبِّهِ أَقْرَبَ، كَانَ أُنْسُهُ بِهِ أَقْوَى، وَكُلَّمَا كَانَ مِنْهُ أَبْعَدَ، كَانَتِ الْوَحْشَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ أَشَدَّ.

وَلَا يُلَمُّ شَعَثُ الْقُلُوبِ بِشَيْءٍ غَيْرِ الْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ، فَهُنَاكَ يُلَمُّ شَعَثُهُ، وَيَزُولُ كَدَرُهُ، وَيَصِحُّ سَفَرُهُ، وَيَجِدُ رُوحَ الْحَيَاةِ، وَيَذُوقُ طَعْمَ الْحَيَاةِ الْمَلَكِيَّةِ»(١).

وإذا حلّ الأنسُ بالله تعالى في القلب استنار وانشرح، وملئ نورًا وفرَحًا، حتى لا يأنس إلا بالله، وأسعد لحظاته الخلوة بالله، وانقلبت المحن في حقِّه إلى منح، والمصائبُ إلى مكاسب.

«خرج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يومًا فخرج خلفه أحد طلابه وهو لا يشعر به، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد، تنفَّس الصعداء ثم تمثَّل بقول الشاعر:

وأخرج مِن بين البيوت لعلني ... أُحدِّث عنك القلب بالسرِّ خاليًا

سبحان الله! يخرج وحيدًا إلى الصحراء؛ ليأنس بالله الواحد الأحد، وما ذاك إلا لحبّه لربِّه، وأُنْسِه به، وشعورِه بحاجتِه إليه، واسْتغنائِه به عن الخلق كلهم.

ومما يدلّ على شدة تعلقه بالله وحبّه له أكثر وأعظم من الاجتماع مع الناس والأحباب: أنه كان يتمثل كثيرًا:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

وكثيرٌ من الناس لا يُطيق الانفراد، دون أيِّ شيءٍ مِن الملهيات.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٩٥).

قال ابن القيم رحمه الله: ورأيت شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ في المنام، وكأني ذكرت له شيئًا من أعمال القلوب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته، فقال: أما أنا فطريقتي: الفرح بالله والسرور به أو نحو هذا من العبارة. اهـ.

وهكذا كانت حاله في الحياة يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله.

وهذه السعادة التي يشعر بها شيخ الإسلام، واللذة والحلاوة والأنس، لم تكن لولا الإيمان الذي نوَّر قلبه، والعلم الذي قوَّى عزمَه، وهما ركنا النعيم، الذي يُشبه نعيم الآخرة.

بل إنه صرح بذلك فقال: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ يُشْبِهُ نَعِيمَ الْآخِرَةِ إِلَّا نَعِيمَ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ»[١].

وإنَّ الإنسان قد يصل في كثير من العلوم الشرعيّة إلى ما يسدُّ حاجته، ويُتقن أهم ما فيها خلال عكوف عليها بعض الشهور أو الأعوام، مع مراجعتها بين الفينة والأخرى حتى لا ينساها.

أما الأحوال القلبية من الإخلاص، والصدق، والتوكل، والخشوع، والرجاء، والخوف، والإنابة، وسلامة الصدر، والبعد عن التكلف والتصنع، والتواضع، وهضم النفس: فإنه لا يزال يتعلّمها ويستحضرها إلى أن يموت، ويجدّد عهده بها، ولو غفل عنها بعض الوقت لفسد قلبه.

فإذا أدرك المسلم أهمية هذا الأمر: علم أنّه بحاجة إلى من يذكره

(١) عَبْقرِيَّةُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رحمه الله، للمؤلف (ص٢٨ ـ ٣٣).

به دائمًا، وهذا هو معنى تجديد الإيمان، الذي كان السلف الصالح يقومون به، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: وَاللهِ إِنِّي إِلَى الْآنَ أُجَدِّدُ إِسْلَامِي كُلَّ وَقْتٍ!

واعلم أنّ طريق الوصول إلى الأنس بالله تعالى يمر عبر **ثلاثِ مراحل**:

المرحلة الأولى: سلامة القلب من الأمراض.

المرحلة الثانية: التعلّق بالله والإقبال عليه.

المرحلة الثالثة: إحسان العمل، والمسارعةُ إلى الخيرات والأعمال الصالحة.

وبعدها سيَفتح الله للمؤمن ـ بإذن الله تعالى ـ بابين عظيمين:

الباب الأول: خفة العبادات عليه، وراحته عند القيام بها.

الباب الثاني: اليقين بالله، والرضا به، وحبّ لقائه، وفرحه به، وحبّه له.

وهذان البابان مغلقان عن جميع العباد، إلا عمن سلم قلبه من كلّ ما يُغضب الله تعالى، وامتلأ بما يُحبه ويرضاه، وأشرق بالحكمة المأخوذة من كلام الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

ولعلك تجد ـ **أخي القارئ** ـ في هذا الكتاب ما يكون سببًا لتذوّق لذةِ العبادة، وحلاوة الإيمان، وأنس الخلوة بالله تعالى، من خلال ما ستجده من المواعظ والتأملات، والخواطر والاستنباطات، مما جاء في صحيح السُّنَّة ومحكم الآيات، وقصص المعاصرين الذين أكرمهم الله تعالى بالإقبال عليه، والأنس به، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمِه.

وقد كنت قد شرعت فيه قبل بضعةِ أعوام، حيث كنت أكتب هذه

الخواطر، وأقيد هذه المواقف والقصص، والأحوال الإيمانية، والأسرار القلبية، وأنظر في نصوص الكتاب والسُّنَّة وأقوال السلف الصالح والعلماء العاملين، وأبحث وأستقصي المواضيع في حينها، فلما اجْتمعت لديّ مادةٌ نافعة، عزمت على ترتيبها وإخراجها.

فدونك هذا الكتاب الذي كتبه مؤلفه بقلبه قبل بنانه، وباح به وجدانُه قبل لسانِه، لم يذق في تأليفِه أيّ نصب وتعب؛ لأنّ القلب أنس به وطَرب، فالحديث عن الله تعالى أمتع الحديث، والكلام في الإيمان أحسن الكلام.

ولم يكن يُراد منه في البداية إلا تدوين الخواطر، وحفظُ ما في الفؤاد من المشاعر، فخرج من حيّز السِّرِّ إلى فضاء الإعلان، بتوفيقٍ من الله الكريم المنان.

فلِلَّه الحمد أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وأسأله تعالى أن ينفع به، إنه جوادٌ كريم.

وقد راجع هذا الكتاب نخبةٌ من المشايخ وطلاب العلم الفضلاء، الذين أكرموني بملحوظاتهم، وسداد آرائهم، وصواب استدراكاتهم، وأضفت للكتاب كثيرًا من عباراتهم وأقوالهم، جزاهم الله خيرًا، ونفع بهم، وجعل ما قدموا في ميزان حسناتهم.

أحمد بن ناصر الطيار
خطيب جامع
عبد الله بن نوفل بالزلفي
والداعية في وزارة الشؤون الإسلامية
البريد الإلكتروني:
ahmed0411@gmail.com
رقم الجوال: ٠٥٠٣٤٢١٨٦٦
١/٨/١٤٤٠هـ

«أهمّيَّة هذا العلم، ومصدره، والكتب التي تعتني به، وطريقة الاستفادة منها»:

يُلاحظ على بعض طلاب العلم، والذين يُوصون بالكتب النافعة لطالب العلم عدم عنايتهم بهذا العلم العظيم النافع، الجليل القدر، والذي ليس بعد علم التوحيد أشرف ولا أنفع منه، وهو العلم بأمراض القلب ودوائه، وتعلقه بالله الذي يؤدي إلى سلامته وصحته وخشيته لله ومحبته وهيبته وإجلاله، والتبتل إِلَيْهِ والتوكل عليه والأنس به، والرضا عنه، والاشتغال به دون خلقه، والشوق إلى لقائه وجنته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا العلم هو من أشرف علوم العباد، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة، ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة، فإذا رأى نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق إليه وتحبه وتأنس بأهله فَلْيُبشِرْ بالخيرِ، فقد أُهِّل له، فليقل لنفسه: يا نفس قد حصل لكِ شطرُ السعادة فاحرصي على الشطر الآخر، فإنَّ السعادة في العلم بهذا الشأن والعمل به، فقد قطعتِ نصف المسافة، فهلَّا تقطعين باقيها فتفوزين فوزًا عظيمًا!..

وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر، فلا ينبغي أن تصغي إلى من يثبّطك عنه، ويقول: إنَّه لا ينفع، بل احذره، واستعن باللَّه، ولا تعجز، ولكن لا تغترّ، وفرِّق بين العلم والحال، وإيَّاك أن تظنّ أنَّ بمجرد علم هذا الشأن قد صرتَ من أهله، هيهات! ما أظهر الفرق بين العالم بوجوه الغنى وهو فقير، وبين الغني بالفعل، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم، وبين الصحيح بالفعل!

وقال: فهذا هو العلم الذي شمَّر إليه أولو الهمم والعزائم، واستبق إليه أصحابُ الخصائص والمكارم. اهـ[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن حب الله تعالى:

وليست هذه المسألة من المسائل التي للعبد عنها غنًى أو منها بدّ، كدقائق العلم والمسائل التي يختصّ بها بعض الناس دون بعض، بل هذه أفرضُ مسألةٍ على العبد، وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخل إلا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب اللَّه إلا بها، فلْيشتغل بها العبد أو ليُعرض عنها.

ومن لم يتحقق بها علمًا وحالًا وعملًا لم يتحقَّق بشهادة أن لا إله إلا اللَّه، فإنَّها سرّها وحقيقتها ومعناها، وإن أبى ذلك الجاحدون، وقصَّر عن علمه الجاهلون؛ فإنَّ الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهُه القلوب بحبها، وتخضع له، وتذِلّ له، وتخافه، وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهمَّاتها، وتتوكَّل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه، وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبّه، وليس ذلك إلا اللَّه وحده، ولهذا كانت أصدقَ الكلام، وكان أهلُها أهلَ اللَّه وحزبَه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته.

فهذه المسألة قطب رحى الدين الذي عليه مداره، وإذا صحَّت صحَّ بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه، وأعماله، وأحواله، وأقواله. ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله. اهـ[(٢)].

---

(١) طريق الهجرتين (ص٥٩٩).

(٢) المصدر السابق (ص٦٦٩ ـ ٦٧٨).

تأمل قوله: «ومن لم يتحقق بها علمًا وحالاً وعملاً: لم يتحقق بشهادة أن لا إله إلا الله»: فلا بدّ من محبّة الله علمًا وحالًا وعملًا.

وفرق بين العلم بالشيء وبين الاتصاف به ذوقًا وحالا، فعلم المحبة شيء ووجودها في القلب شيء.

وكثير من المحبين الذين امتلأت قلوبهم محبةً لو سُئل عن تعريف المحبة وأحكامها وحقيقتها لم يستطع أن يعبّر عنها، وأكثر من يتكلّم فيها إنما تكلم فيها بلسان العلم لا بلسان الحال[(١)].

وإنه لمن العجب أن البعض يتبحّر في القراءة في كثيرٍ من العلوم والفنون، ولا يقرأ ما يُهذّب به نفسه وقلبه وما يُصلح به أخلاقه!!.

قال ابن الجوزيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: رأيتُ الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أن يُمْزَجَ بالرقائق، والنظر في سير السلف الصالحين.

فأما مجرد العلم بالحلال والحرام، فليس له كبير عمل في رقة القلب، وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث، وأخبار السلف الصالحين؛ لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها. وما أخبرتُك بهذا إلا بعد معالجة وذوق، لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث هَمَّةُ أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما يُغالب به الخصم، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء؟!اهـ. صيد الخاطر: ٢٢٨

---

(١) طريق الهجرتين (ص٦٦٦) بتصرف.

ومصدر هذا العلم الشريف: الكتاب والسنة وأقوال وأفعال السلف الصالح.

ومن الكتب التي تؤصّل هذا العلم وتعتني به أتمّ العناية:

١ ـ تهذيب إحياء علوم الدين للشيخ صالح الشامي.

٢ ـ مُختَصَرُ مِنْهاجِ القاصِدِين لابن قدامَة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣ ـ تقريب مدراج السالكين لمجموعة من طلاب العلم.

٤ ـ طريق الهجرتين لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وإذا أردت الاستفادة منها فعليك بما يلي:

١ ـ اقرأها بالتدرج على هذا الترتيب.

٢ ـ اقرأها بتأنٍّ وتمهّل وتأمل، وإياك والسرد والعجلة.

٣ ـ خصص لها وقتًا من الزمن، سواء فرّغت جلّ وقتك لها، أو جعلتها ضمن برنامج العلمي.

٤ ـ دوّن أهم الفوائد التي أثرت عليك.

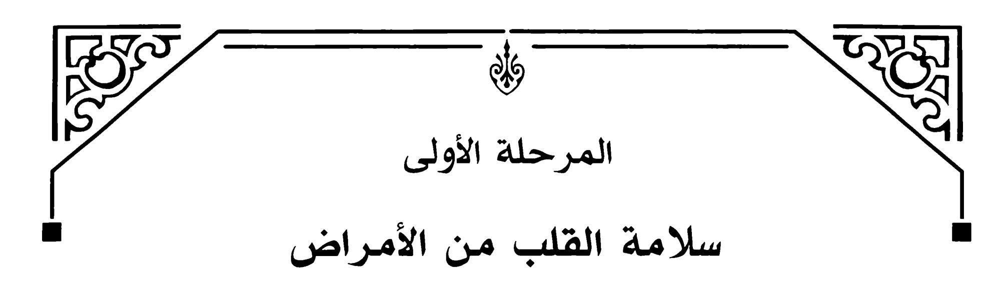
٥ ـ كرر مراجعة ما دوّنت كل عام مرة أو مرتين، لأجل حفظها أو استظهارها.

٦ ـ اعزم على العمل بما قرأت، وهذا هو المقصود الأهم من كل علم، وخاصة هذا العلم الشريف.

وسترى بمشيئة الله بعدها تغيُّرًا ظاهرًا في حالك إلى الأحسن، وصلاحًا في قلبك وأخلاقك وعباداتك، وتعلّقا أكثر بالله تعالى، وأنسًا به، وستزداد همّة وعزيمة وزهدًا في كلّ ما لا ينفعك في دينك ودنياك.

أسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا، وأن يثبتنا على دينه حتى نلقاه.

مراحل طريق الوصول
إلى الأنس بالله تعالى



المرحلة الأولى

سلامة القلب من الأمراض

من أراد أن يملأ الله تعالى قلبه إيمانًا وانشراحًا وأنسًا به: فليخرج منه الأمراض التي تحول بينه وبين ذلك، ولا يمكن أن يطهر القلب ما لم تخرج الصفات الخبيثة منه.

وقد أَثْنَى اللهُ ﷻ عَلَى خَلِيلِهِ ﷺ بِسَلَامَةِ قَلْبِهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾.

وَقَالَ حَاكِيًا عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٨٨، ٨٩].

واعلم أنّ «فِي النَّفس كِبر إِبْلِيس، وحسد قابيل، وعتو عَاد، وطغيان ثَمُود، وجرأة نمْرُود، واستطالة فِرْعَوْن، وبغي قَارون، وَجَهل أبي جهل، وفيهَا من أَخْلَاق الْبَهَائِم حرص الْغُرَاب، وشره الْكَلْب، ودناءة الْجعل، وعقوق الضَّب، وحقد الْجمل، وصولة الْأسد، وَفسق الْفَأْرَة، وخبث الْحَيَّة، وعبث القرد، وَجمع النملة، ومكر الثَّعْلَب»[1].

وقد وصف الله تعالى الإنسان بأنه ظلوم، جهول، هلوع، خاسر، كنود، كفار.

غير أَنّ الاستعانة بالله تعالى، وكثرة المجاهدة في إزالة هذه الأمراض والخبائث، والتخلص من هذه الأوصاف: تُذهب تلك

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص٧٥).

الأمراض، وتزيل عنه تلك الأوصاف، فَمن استرسل مَعَ طبعه، ولم يعتن بصلاح نفسِه وقلبه: أصبح خبيث النفس، جامعًا لكلّ شرّ.

وكلُّ من فرَّط في إصلاح قلبه وسلامته من الأمراض: فإنه سينشأ ويكبر وهو متصفٌ بمرض من الأمراض الخطيرة، والتي ستظهر على سلوكه وتعامله.

ولا يعني علو كعب الرجل في العلم وكونه معدودًا في العلماء أنه سالم من أمراض القلب، فقد يكون طالب العلم أو العالم أو الداعي إلى الله ـ ولو كان مشهورًا ـ فيه مرض محبة الشهرة، أو العجب، أو اتباع الهوى، أو احتقار من هو دونه، أو سوء الخلق؛ كشدة الغضب، أو القسوة على الطلاب أو عموم الناس أو المخالفين، أو عدم البشاشة، أو عدم تقبل النقد البنّاء.

فاحرص ـ **رعاك الله** ـ على صلاح قلبك، وتخليصِه من الأمراض الكثيرة الخطيرة.

«وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إماطتها وقهرها، ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها.

ولهذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتزكية القلوب يفتشون عن قلوبهم، ويُحاسبون أنفسهم.

ومثل القلب المشحون بهذه الخبائث: مثال دُمَّلٍ ممتلئ بالصديد، وقد لا يحسّ صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسّه غيره، وما لم يكن مَن يحركه ربما ظن بنفسه السلامة، ولكن لو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال.

فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر

الأخلاق الذميمة، إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك»[١].

والدُّمّل لا يزال يُؤلمك ويُؤرّقك حتى تُخرجه، وكذلك أمراض القلوب كالحسد والحقد والكبر والنفاق والتعلق بغير الله ورجاءِ ومحبة غيره لا تَزال تؤلمك وتؤرّقك حتى تُخرجها.

فبادر إلى إخراجها من قلبك؛ لتذوق طعم الإيمان وسرور النفس وصلاح البال وطيب العيش.

ووالله لا أنْكد ممّن يحمل هذه الأمراض.

فالواجب على كلّ ناصحٍ لنفسِه أن يحرص على البحث عن الحجب التي تحجب الإيمان واليقين عن دخول القلب؛ ولذا أمر النبيُّ ﷺ من يُدافعُه الغائط أو البول أنْ يقضي حاجته قبل دخوله في الصلاة، وكذلك أَمَر إِذَا كَانَ أَحَدُنا عَلَى الطَّعَامِ أَلَا يَعْجَل حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ مِنْهُ، وَإِنْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ[٢]، ما لم يخش خروج الوقت.

وكلّ هذه الاحترازات لأجل أن يسلم قلبه ولا ينشغل في صلاته، فلا يحجبه حاجب، ولا يشغله شاغل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ، ومحبته، وحلاوة ذكره، والأنس بقربه، في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها؟ . اهـ[٣].

فإذا كانت هذه الصور منعتْ لذةَ مُناجاة الله تعالى، والخشوع والطمأنينة، فكيف نطمع ـ عفا الله عنا ـ أنْ ننال ذلك وقلوبنا مليئةٌ

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٢).
(٢) رواه البخاري (٦٧٣، ٦٧٤)، ومسلم (٥٥٧).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٢٥٠).

بأمراض الحسد أو الغل أو القطيعة أو العجب أو الكبر، أو الشهوات.

فكيف نشكو بعد ذلك قسوة قلوبِنَا؟

كيف نشكو قلّة أو انعدام خشوعنا في صلواتنا؟

كيف نشكو عدم قدرتنا على قيام الليل وطلب العلم وأنواع الطاعات والقربات؟

إنّ الصَّور الحسيّةَ نراها ونستطيع إخراجها أو طمسها، ولكن يجب علينا أنْ نسارع إلى شفاء أمراض قلوبنا من الحسد، والحقد، والعجب، والتعلق بالدنيا، وحبّ الشهرة.

وإذا كان اللهُ تعالى عاقب الصحابةَ الكرامَ ﭫ بالهزيمة يوم أُحدٍ بسبب مُخالفة أو مُخالفتين فقط؟ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، هذا ورسول الله وخاتم رسله ﷺ معهم وبين أيديهم؟

فيجب علينا أن ننتصر على جُيوش الشهوات الحسية والمعنوية.

ويجب علينا أن ننتصر على الشياطين التي أخذت على أنفسها أنْ تغوينا وتضلّنا.

وقد قال أبوهم وقائدهم: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢﴾.

وإذا كان الإنسان في مواطن الطاعات والقربات لا يسلم من أمراض القلب، ووساوس الشيطان، وصولة الهوى، فإن لم يجاهد نفسه في دفعها هلك، فكيف سيسلم في مواطن القُرْب من المعاصي والذنوب، التي أجلب الشيطان عليه بخيله ورَجِله، واستولت عليه الأهواء والشهوات؟

كيف سيكون قلبُه، وعقلُه، وخلُقه، ودينُه؟

وسوف أذكر الدواء الناجع المخلِّص من أمراض القلب فيما يلي:

١ «ثمانية أمراض تمنع القلب أن يكون سليمًا»:

الْقَلْبُ السَّلِيمُ هُوَ الَّذِي سَلِمَ مِنَ ثمانية أمراض:

المرض الأول: الشِّرْك، وهو تعلّق القلب بغير الله تعالى، حبًّا أو رجاءً، أو خوفًا، أو توكلًا، أو خشية، أو رهبة، أو رغبة.

واعلم أنَّ توحيد الله تعالى يجمع القلب ويصفّيه؛ فإنّ كلمة التوحيد (لا إلٰه إلا الله) لها معنى عظيم جدًّا؛ فإنَّ الإلٰه: هو الذي يألهه العباد ذلًّا، وخوفًا، ورجاء، وتعظيمًا، وطاعة له، بمعنى مألوه، وهو الذي تألهه القلوب؛ أي: تحبُّه وتذلّ له.

«فَتَخْلُو الْقُلُوبُ عَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ بِمَحَبَّتِهِ، وَعَنْ رَجَاءِ مَا سِوَاهُ بِرَجَائِهِ، وَعَنْ سُؤَالِ مَا سِوَاهُ بِسُؤَالِهِ، وَعَنْ الْعَمَلِ لِمَا سِوَاهُ بِالْعَمَلِ لَهُ، وَعَنْ الِاسْتِعَانَةِ بِمَا سِوَاهُ بِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ»(١).

فإنّ أعظم طريق للأنس بالله تعالى: تجريد التوحيد له، بحيث لا يرجو العبدُ إلا الله، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يدعو غيره، ولا يذلّ إلا له، ولا يطمئن إلا به، ولا يسكن إلا إليه.

فتَجْرِيد التَّوْحِيد؛ يعني: «ألا يكون العَبْد ملتفتًا إِلَى غير الله، وَلَا نَاظرًا إِلَى مَا سواهُ، لَا حبًّا لَهُ، وَلَا خوفًا مِنْهُ، وَلَا رَجَاء لَهُ؛ بل يكون الْقلب فَارغًا من الْمَخْلُوقَات، خَالِيًا مِنْهَا، لَا ينظر إِلَيْهَا إِلَّا بِنور الله، فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي، فيحب مِنْهَا مَا يُحِبهُ الله، وَيبغض مِنْهَا مَا يبغضه الله، ويوالي مِنْهَا مَا وَالَاهُ الله،

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢٤).

ويعادي مِنْهَا مَا عَادَاهُ الله، وَيخَاف الله فِيهَا وَلَا يخافها فِي الله، ويرجو الله فِيهَا وَلَا يرجوها فِي الله.

فَهَذَا هُوَ الْقلب السَّلِيم، الحنيف، الموحد، الْمُسلم، الْمُؤمن، الْمُحَقق، الْعَارِف بِمَعْرِفَة الْأَنْبِيَاء وَالْمُرْسلِينَ وتحقيقهم وتوحيدهم»[١].

فالتوحيد الخالص لله «هو جماع الدين، الذي هو أصلُه وفرعُه ولُبُّه، وهو الخير كلُّه»[٢]، وهو الذي يُنقذ النفس من التشتت، فبدلًا من أن تخاف من المرض، ومن الفقر، ومن تسلط الأعداء، ومن الجنّ، ستخاف من الله وحده سبحانه، الذي إذا خفته أمنته وأنست به، بخلاف الخوف من غيره، فلا يزيدك إلا خوفًا وفقرًا وذلًا.

فلا تخاف إلا من الخالق سبحانه، ولا ترجو إلا إياه، ولا تعتمد إلا عليه، ولا تذلّ إلا له، ولا تنقاد إلا إليه.

فالتوحيد يوحّد النفس ويجمعها على واحد، وهو الرب العظيم القوي القريب.

فلا تخاف من مرض؛ لأنّ الشفاء بيد الله سبحانه.

ولا تخاف من عدوّ؛ لأنّ ناصيته بيده سبحانه.

ولا تخاف من الموت؛ لأنّ الآجال بيده سبحانه.

ولا تخاف من الفقر؛ لأن الرزق بيده سبحانه.

ولا تطمع إلا فيمن لا تنفد خزائنُه.

ولا تتوكّل إلا على من لا يُردُّ أمرُه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٢٢).

(٢) جامع المسائل لابن تيمية (٦/ ٢٧٤).

ولا تشكو إلا لمن يسمع شكواك فيقضي حاجتك.

فعندها يجتمع القلبُ ويسكن ويطمئن، ويسلم من التشتت هنا وهناك، وعند فلان وفلان، ويتحرر من رقّ العبودية للخلق، ويكون للخالق الرازق العظيم الكريم، ﷻ.

فالحريّةُ الحقيقية هي بالعبوديّة لله تعالى وحده.

فإنّ العبد متى الْتَفَتَ إلى غير الله: أخذ ذلك الالتفاتُ شعبةً من شُعَب قلبه، فضعف وجبن وتفرّق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإنسان لا يجد الطمأنينة ولا السكينة حتى يذكر الله ويُوجّهَ قلبه إليه، فإنه يجد الطمأنينة والسكينة فلا يبقى عنده منازعة إلى شيء آخر.اهـ[١].

فلن يستقر قلبك إلا إذا لم يبق عنده منازعةٌ إلى شيء آخر، فلا تطمع من فلان، ولا تخاف من فلان، ولا تعلّق رجاءك بفلان.

وحال مَن ضعُف توحيده وتعلُّقُه بربِّه، كحال حبات مبعثرة في أرض فلاة، يشق جمعها وتحصيلها.

وحال من جرّد التوحيد لله رب العالمين، كحال حبات قد عُقدت في سلك واحد منتظم، لا يفرّقها سقوطٌ، ولا تشتّتها رياحٌ، مع فارق الشبه.

ففي القلب شَعَثٌ وتفرّقٌ وتشتّت، لا يُلِمُّه ويجمعُه إلا الإقبال على الله.

وفيه وحشةٌ وخوفٌ وفزع، لا يزيله إلا الأنس به في خلوته.

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية (٦/ ١٢٢).

وفيه حزن، لا يُذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته.

وفيه قلق، لا يُسَكِّنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه.

وفيه نيرانُ حسرات، لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه طلبٌ شديدٌ، لا يقف عند حدّ، دون أن يكون هو وحده مطلوبه.

وفيه فاقة وحاجة شديدة، لا يسدها إلا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له.

ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا(١).

«فاللذة التَّامَّة، والفرح، وَالسُّرُور، وَطيب الْعَيْش وَالنَّعِيم: إِنَّمَا هُوَ فِي معرفَة الله، وتوحيده، والأنس بِهِ، والشوق إِلَى لِقَائِه، واجتماع الْقلب والهم عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ أنكد الْعَيْش عَيْشُ مَن قلبه مشتت، وهمه مفرق، فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مُسْتَقر يسْتَقرّ عِنْده، وَلَا حبيب يأوي إِلَيْهِ ويسكن إِلَيْهِ، كَمَا أفْصح الْقَائِل عَن ذَلِك بقوله: فالعيش الطّيب والحياة النافعة وقرة الْعين فِي السّكُون والطمأنينة إِلَى الحبيب الأول، وَلَو تنقل الْقلب فِي المحبوبات كلهَا لم يسكن وَلم يطمئن إِلَى شَيْء مِنْهَا، وَلم تقر بِهِ عينه حَتَّى يطمئن إِلَى إلٰهه وربه ووليه، الَّذِي لَيْسَ لَهُ من دونه ولي وَلَا شَفِيع، وَلَا غنى لَهُ عَنهُ طرفَة عين، كَمَا قَالَ الْقَائِل:

نقِّل فُؤَادك حَيْثُ شِئْت من الْهوى ... مَا الْحبّ إِلَّا للحبيب الأول
كم منزل فِي الأَرْض يألفه الْفَتى ... وحنينه أبدا لأوّل منزل

(١) يُنظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١٥٦/٣).

فاحرص أَن يكون همُّك وَاحِدًا، وَأَن يكون هُوَ الله وَحده، فَهَذا غَايَة سَعَادَة العَبْد، وَصَاحب هَذِه الْحَال فِي جنَّة مُعجلَة قبل جنَّة الْآخِرَة، وَفِي نعيم عَاجل»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: اعْلَمْ أَنَّ أَشِعَّةَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُبَدِّدُ مِنْ ضَبَابِ الذُّنُوبِ وَغُيُومِهَا بِقَدْرِ قُوَّةِ ذَلِكَ الشُّعَاعِ وَضَعْفِهِ، فَلَهَا نُورٌ، وَتَفَاوُتُ أَهْلِهَا فِي ذَلِكَ النُّورِ ـ قُوَّةً، وَضَعْفًا ـ لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي قَلْبِهِ كَالشَّمْسِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ.

وَمِنْهُمْ مَنْ نُورُهَا فِي قَلْبِهِ كَالْمَشْعَلِ الْعَظِيمِ.

وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ الْمُضِيءِ، وَآخَرُ كَالسِّرَاجِ الضَّعِيفِ.

وَلِهَذَا تَظْهَرُ الْأَنْوَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَيْمَانِهِمْ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمْ، عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ، بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ نُورِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، وَمَعْرِفَةً وَحَالًا.

وَكُلَّمَا عَظُمَ نُورُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَاشْتَدَّ أَحْرَقَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ بِحَسَبِ قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا وَصَلَ إِلَى حَالٍ لَا يُصَادِفُ مَعَهَا شُبْهَةً وَلَا شَهْوَةً، وَلَا ذَنْبًا، إِلَّا أَحْرَقَهُ، وَهَذَا حَالُ الصَّادِقِ فِي تَوْحِيدِهِ، الَّذِي لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئًا، فَأَيُّ ذَنْبٍ أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ دَنَتْ مِنْ هَذَا النُّورِ أَحْرَقَهَا، فَسَمَاءُ إِيمَانِهِ قَدْ حُرِسَتْ بِالنُّجُومِ مِنْ كُلِّ سَارِقٍ لِحَسَنَاتِهِ، فَلَا يَنَالُ مِنْهَا السَّارِقُ إِلَّا عَلَى غِرَّةٍ وَغَفْلَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا لِلْبَشَرِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ وَعَلِمَ مَا سُرِقَ مِنْهُ اسْتَنْقَذَهُ مِنْ سَارِقِهِ، أَوْ حَصَّلَ أَضْعَافَهُ بِكَسْبِهِ، فَهُوَ

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص٣٠).

هَكَذَا أَبَدًا مَعَ لُصُوصِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، لَيْسَ كَمَنْ فَتَحَ لَهُمْ خِزَانَتَهُ، وَوَلَّى الْبَابَ ظَهْرَهُ.

وَلَيْسَ التَّوْحِيدُ مُجَرَّدَ إِقْرَارِ الْعَبْدِ بِأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، كَمَا كَانَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ مُقِرِّينَ بِذَلِكَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ؛ بل التَّوْحِيدُ يَتَضَمَّنُ ـ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ، وَالْخُضُوعِ لَهُ، وَالذُّلِّ لَهُ، وَكَمَالِ الِانْقِيَادِ لِطَاعَتِهِ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَإِرَادَةِ وَجْهِهِ الْأَعْلَى بِجَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَالْمَنْعِ، وَالْعَطَاءِ، وَالْحُبِّ، وَالْبُغْضِ ـ مَا يَحُولُ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ الْأَسْبَابِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْمَعَاصِي، وَالْإِصْرَارِ عَلَيْهَا. اهـ[1].

المرض الثاني: الْحِقْد، وهو بغض المسلم بسبب شحناء وعداوة دنيوية بينهما.

وقد جعل الله تعالى من نعيم الجنة زوالَ ما في صدورهم من غلّ؛ لِمَا يسببه من النكد والغم والقلق الذي هو من أعظم العذاب، فصاحب الحقد والغلِّ في عذابٍ دائم، لا يذوق معه طعمَ السعادةِ والإيمان.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمَهم على الله لم يَنتقِمْ لنفسِه، مع أنَّ أذاه أَذى الله[2]، ويتعلّقُ به حقوق الدِّين، ونفسُه أشرف الأنفُس وأزكاها وأبرُّها، وأبعدُها من كلّ خُلُقٍ مذمومٍ، وأحقُّها بكل خُلُقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن يَنتقِم لها، فكيف يَنتقِمُ أحدُنا لنفسِه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب؟؛ بل الرجل العارف لا تُساوِي نفسُه عنده أن ينتقم لها، ولا قدْرَ لها عنده

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٣٤١).

(٢) أي: أنَّ من يُؤذي رسول الله فقد آذى الله تعالى، وفي بعض النسخ: لله، ولعل الْمُثبت هو الصواب.

يُوجِبُ عليه انتصارَه لها[١] .اهـ.

وها هو يوسف عليه السلام، ألقاه إخوته في الجبّ بعد أن تآمروا على قتله، وفرقوا بينه وبين أبيه وأهله أربعين سنة ـ كما قيل ـ، ذاق خلالها مرارة العبودية والسجن والظلم، فلما رفع الله تعالى من شأنه وأصبح عزيز مصر والْتقى بإخوته وقالوا له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ فبماذا ردَّ عليهم؟ ردّ عليهم بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾، فلم يُذكِّرْهم بالماضي ولا حتى عاتبهم؛ بل سامحهم ودعا لهم.

وقد امْتُحن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ ثُمَّ الْمُعْتَصِمِ ثُمَّ الْوَاثِقِ بسبب القرآن العظيم، وَناله الكثير من الأذى، وأُودِعَ السِّجْنَ نَحْوًا مِنْ ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ شَهْرًا، وضُرب أكثر من ثَلَاثِينَ سَوْطًا، لَكِنْ كَانَ ضَرْبًا مُبَرِّحًا شَدِيدًا جِدًّا.

وأُغْمِيَ عَلَيه وَغاب عَقْله مِرَارًا خلال الضرب.

وَجَعَلَ كُلَّ مَنْ سَعَى فِي أَمْرِهِ فِي حِلٍّ إِلَّا أَهْلَ الْبِدْعَةِ، وَكَانَ يَتْلُو فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النُّورِ: ٢٢]، وَيَقُولُ: مَاذَا يَنْفَعُكَ أَنْ يُعَذَّبَ أَخُوكَ الْمُسْلِمُ بسببك؟ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشُّورَى: ٤٠] وَيُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ»، فَلَا يَقُومُ إِلَّا مَنْ عَفَا[٢].

وفي كلّ يوم جدّد عفوك عن كل مسلم ظلمك أو أخذ مالك، أو اغتابك أنت أو أحدًا من أهلك وأولادك، وأشدّ الناس عليك أذيّة هو

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية (١/ ١٧١). (٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٥ ـ ٤٧).

أول من ينبغي أن تبدأ بتحليله والاستغفار له، وسؤال الله أن يهديه، وألا يعذبه بسببك.

ولِمَاذا يُشغل المؤمن نفسه بالعتاب والحقد والردود والشكاوى؟

والْتفاته لهذه الأمور يُحدث له أضرارًا كثيرة **منها**:

١ ـ أنه يشغل قلبه وخاطره بما يضره ويكدره، والعاقل لا يفعل هذا.

٢ ـ أنه مشغول في الدنيا بزرع الحسنات ليحصدها يوم القيامة، فإذا انشغل بغير ذلك تسبب في تقليل زرعه أو إفسادِه، والمؤمن لا وقت له لمثل هذه الأمورِ التافهة؛ بل هو في سباق إلى الدار الآخرة، والمتسابق لا يلتفت إلى من يعترض طريقه بالسبّ والأذى والسخرية؛ بل يمضي كي لا يُسبق، ولو انشغل بهم لَمَا كان في عداد الفائزين قطعًا.

كان مجموعةٌ من طلاب العلم يومًا في أحد المساجد يتدارسون القرآن، وكانوا حريصين على خفض الصوت حتى لا يشوّشوا على الذين جلسوا يقرؤون القرآن في المسجد، وبينما هم كذلك إذ جاء رجل غليظ فخاطب معلّمهم أمام المجموعة بأسلوب غليظ ووجه عابس: اخفض صوتك، فنحن نقرأ!

فقال له: أبشر بإذن الله، ثم خفض صوته أكثر، وأكمل القراءة وكأن شيئًا لم يكن.

وحينما رأى الدَّهْشة على وجوه أصحابِه قال لهم: «إنّ من الابتلاءات التي تُواجه المسلم: تعرُّضَه لبعض الإساءات والغلظة في القول من بعض إخوانه المسلمين، فالموفق من يتحلى بخلق الصبر والحلم وكظم الغيظ، ويكون من الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾﴾، وقال عنهم: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾.

ونحن ولله الحمد قد عافانا الله تعالى من الابتلاء بتسلّط المنافقين والكافرين علينا، فهلا صبرنا على غِلَظ بعض إخواننا المسلمين؟

وإننا نحمد الله على أن ابتلانا بمثل هذه المواقف، ثم منّ علينا ووفقنا ربنا للصبر والحلم والعفو والتماس الأعذار؛ لأنَّ الغالب في حياتنا أننا نلاقي البِشْر والإكرام من عموم الناس».

ولو لم يكن من ثمار كظم الغيظ إلا أنه يقي صاحبه من سُكْر الغضب، الذي مِن شدة سُكْره لا يكاد يَسْمع ويعي ما يقول لكفى، كما قال الشاعر:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كَاظِمًا ... لِلْغَيْظِ تُبْصِرُ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ
فَكَفَى بِهِ شَرَفًا تَصَبُّرُ سَاعَةٍ ... يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهُ وَتُرْفَعُ

ومما يجمل ذكره في هذا المقام ما ذكره ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ أنّ الشَّيْخَ أَبا مُحَمَّد بْن أَبِي زَيْدٍ ـ وهو مِنْ الْعِلْمِ وَالدِّينِ فِي الْمَنْزِلَةِ الْمَعْرُوفَةِ ـ كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ سَيِّئَةُ الْعِشْرَةِ، وَكَانَتْ تُقَصِّرُ فِي حُقُوقِهِ، وَتُؤْذِيهِ بِلِسَانِهَا، فَيُقَالُ لَهُ فِي أَمْرِهَا، ويُعذلُ[1] بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا، فكَانَ يَقُولُ: أَنَا رَجُلٌ قَدْ أَكْمَلَ اللهُ عَلَيَّ النِّعْمَةَ فِي صِحَّةِ بَدَنِي وَمَعْرِفَتِي، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي، فَلَعَلَّهَا بُعِثَتْ عُقُوبَةً عَلَى ذَنْبِي، فَأَخَاف إذَا فَارَقْتُهَا أَنْ تَنْزِلَ بِي عُقُوبَةٌ هِيَ أَشَدُّ مِنْهَا. اهـ[2].

---

(١) أي: يُلام.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ط. العلمية (١/ ٤٦٩).

تنبيه: لا يعني الحلم وكظم الغيظ والعفو ألا يتخذ الإنسان الأسباب المشروعة النظامية في ردّ عدوان الظالم عليه؛ بل له الحق في ذلك، ولكن مع ذلك لا ينتقم لنفسه بالشتم والسبّ والغضب والانتقام؛ بل يقصد ردّ عدوان الظالم وكفّ شرّه عن الناس.

المرض الثالث: الْحَسَد، وهو تمني زوال النعمة عن المسلم الذي يستعملها فيما يُباح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الْحَسَدُ فِيهِ بُخْلٌ وَظُلْمٌ؛ فَإِنَّهُ بُخْلٌ بِمَا أُعْطِيهِ غَيْرُهُ، وَظُلْمُهُ بِطَلَبِ زَوَالِ ذَلِكَ عَنْهُ.اهـ[١].

«ولن تبلغ ـ **أخي المسلم** ـ كمال الإيمان ولن تَنْعم بسلامة القلب حتى تحبَّ الرفعةَ لأقرانك وطلابك وأصحابك في العلم والدين والدنيا والقبول والذكر الحسن.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[٢].

ومعنى الحديث: «أنَّ الموصوفَ بالإيمانِ الكامل: مَنْ كان في معاملته للناس ناصحًا لهم، مريدًا لهم ما يريده لنفسه، وكارهًا لهم ما يكرهه لنفسه، ويتضمَّنُ أن يفضِّلهم على نفسه؛ لأنَّ كلَّ أحد يُحِبُّ أن يكونَ أفضَلَ من غيره، فإذا أحَبَّ لغيره ما يحبُّ لنفسه، فقد أَحَبَّ أن يكونَ غيره أفضَلَ منه»[٣].

والدَّعوى لا بدَّ لها من بيّنة، وأكبر دليلٍ على أنك تُحب للناس ما

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٤).
(٢) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٣) المفهم للقرطبي (١/ ٢٢٧).

تُحب لنفسك: أنْ تمدحَ من صدر منه ما يستحق المدح، وتشكره وتذكر عمَله في المجالس، وتُحبَّ أنْ تسمع من يمدحه ويُثني عليه، وتفعلَ الأسباب التي يكون بها طلابُك وأقرانُك وأصحابُك مثلك أو أفضلَ منك، بأنْ تساعدهم، ولا تكتمَ عنهم أيّ طريق وسبيل يُؤدي إلى تفوقهم ونجاحهم ورفعتهم.

وإذا حصلت على خيرٍ دنيويٍّ أو دينيٍّ وجدتَ الرغبةَ في إخبارهم بأسبابِ تحصيل هذا الخير؛ لكي ينالوا مثل ما نِلْت أو أحسن»[١].

قال الشيخ محمد رشيد رَحِمَهُ اللهُ في قصّةِ قتلِ قابيل هابيل: وَأَكْبَرُ الْعِبَرِ فِي الْآيَةِ أَنَّ قِصَّةَ ابْنَيْ آدَمَ أَقْدَمُ قِصَّةٍ تَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ الْحَسَدَ كَانَ مَثَارَ أَوَّلِ جِنَايَةٍ فِي الشَّرِّ، وَلَا يَزَالُ هُوَ الَّذِي يُفْسِدُ عَلَى النَّاسِ أَمْرَ اجْتِمَاعِهِمْ، مِنِ اجْتِمَاعِ الْعَشِيرَةِ فِي الدَّارِ إِلَى اجْتِمَاعِ الْقَبِيلَةِ إِلَى اجْتِمَاعِ الدَّوْلَةِ، فَتَرَى الْحَاسِدَ تَثْقُلُ عَلَيْهِ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَخِيهِ فِي النَّسَبِ أَوِ الْجِنْسِ أَوِ الدِّينِ، وَهُوَ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِمِثْلِهَا لِيَنَالَهَا، فَيَبْغِي عَلَى أَخِيهِ، وَلَوْ بِمَا فِيهِ شَقَاؤُهُ هُوَ. اهـ[٢].

ومن أعظم ما يزيل الحسد ويجتثّه: الإيمان التامّ بالقضاء والقدر.

المرض الرابع: الشُّحّ، وهو: «شدةُ الحرص على الشيء، والاحفاءُ في طلبه، والاستقصاءُ في تحصيله، وجَشَعُ النفس عليه.

والبخل: منع إنفاقه بعد حصوله، وحبُّه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله، فالبخل ثمرةُ الشح، والشح يدعو إلى

(١) عِبَاراتٌ أَثَّرَتْ عَلَيَّ وغَيَّرَتْ فِيْ حَيَاتِي، للمؤلف (ص٥١).
(٢) تفسير المنار (٦/ ٣٠٥).

البخل، والشح كامنٌ في النفس، فمن بخل فقد أطاع شحَّه، ومن لم يبخل فقد عصى شحَّه، ووُقي شره، وذلك هو المفلح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾»[١].

وضدّ الشح: الإيثار، «وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحابّ النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها؛ بل مع الضرورة والخصاصة»[٢]، كما قال تعالى عن الأنصار رضي الله عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

المرض الخامس: الْكِبْر، وهو ردُّ الحق، واحتقار الناس.

والكبر هو ذنب إبليس الرجيم، فآلَ أمره إلى الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: التكبر شَرٌّ من الشرك، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره.اهـ.

ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين، كما قال الله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾.

وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: ٣٥][٣].

«واعلم أنّ أصل التواضع ما كان في القلب لا ما كان في الظاهر، فليس التواضع بنزولك إلى من هو أقلّ وأدنى منك، ولكن بألا ترى في

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص٣٣).
(٢) تفسير السعدي (ص٨٥١).
(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٣١٦).

نفسك ما يُميّزها عن غيرها لتنزل إليهم، فتتعاملُ مع الصغير والفقير مُعاملةَ الأخ مع أخيه والصديق مع صديقِه.

فشعورُك بأنّك متواضعٌ عند تعاملك مع من هو أقل منك ـ في الظاهر ـ دليلٌ على أنّك ترى نفسك أرفع منه، ومن أخبرك بذلك؟ فهذا نوعٌ من الترفع الخفيّ.

ولا سبب للعاقل يدعوه إلى الشعور باستعلائه على غيره ـ من المسلمين ـ، فإن كان لغناه أو لصحته وسلامة أعضائه، فقيمةُ الإنسان بلبّه وأخلاقه وعقله، ولا عبرة بالشكل ولا بالمال الذي قد يذهب بأي لحظة، وصدق القائل:

فلا تغترر بالعز والمال والمنى   فكم قد بُلينا بانقلاب صفاتها

وإذا كان لعلمه، فالجاهل قد يكون أسلم من المتعلم، فالله تعالى سيُحاسب العالم وطالب العلم بقدر علمه ماذا عمل به، وهل بلّغه وزكّاه؟»[(١)].

والعجب والغرور والكبر: يحرم من التوفيق، ويُضلّ سواء الطريق، ويَنزع بركة العلم، والعياذ بالله.

المرض السادس: حُبّ الدُّنْيَا، وذلك بالعمل لأجلها، والفرح والتعلق بها.

«وقد تواتر عن السلف أنَّ حبَّ الدنيا رأس الخطايا وأصلها»[(٢)].

وقد كان النبي ﷺ يتحاشى جمع المال الكثير، قال أبو ذر رضي الله عنه:

---

(١) آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِهِ ورُسُوخِه، للمؤلف (ص٥٣ ـ ٥٤).
(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢٢٠).

إِنَّ خَلِيلِي أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ دَعَانِي فَأَجَبْتُهُ، فَقَالَ: «**أَتَرَى أُحُدًا؟**» فَقُلْتُ: أَرَاهُ، فَقَالَ: «**مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي مِثْلَهُ ذَهَبًا أُنْفِقُهُ كُلَّهُ، إِلَّا ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ**»(١).

لا يحب أن يمتلك الذهب الكثير؛ لينفقه كلّه في الجهاد، ويكون عونًا على عزّ الإسلام، وإغناءِ الفقراء والمساكين!!

لماذا؟

يحتمل ذلك عدة أمور، **منها**:

١ ـ أنه صلوات الله وسلامه عليه خاف أن تتعلق نفسُه بالمال ولو كان في بادئ الأمر يظن أنه لن يتعلق به، وسينفقه في سبيله الله.

٢ ـ أنه يحب أن يتفرغ للعبادة والإقبال على الله تعالى، وإذا امتلك هذه الأموال ولو أنفقها في سبيل الله فلا بد أن ينشغل بها وبإنفاقها على أهلها.

فهل يليق بالمسلم أن يعلق قلبه بهذه الأموال؟ ويسأل الله دومًا أن يكثر ماله؟ ويتشوّف قلبُه للمزيد من الدنيا ومتاعها الزائل؟

ومن سأل الله كثرة المال، فإنما سأله طول الوقوف للحساب.

قال ﷺ: «**إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ، بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا**»(٢).

وصدق الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: فرحك بالدنيا يذهب بحلاوة العبادة، وهمك بالدنيا يذهب بالعبادة كلها(٣).

وإذا كان المريض ينظر إلى طيِّب الطعام فلا يشتهيه من شدة

---

(١) رواه مسلم (٩٩٢).
(٢) رواه مسلم (٣٧).
(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا (٣/ ٢٦٤).

الوجع، ولو أكله ما تلذّذ به: فكذلك صاحب الدنيا، الذي صرف جلّ همّه لها، لا يلتذُّ بالعبادة، ولا يجد حلاوتها، وليس في الدنيا أحلى ولا ألذّ منها.

المرض السابع: حُبّ الرِّيَاسَةِ، وهو حبّ العلو والرفعة، وطلبها والحرص عليها بلا مصلحة دينية، «ولا تنس ذنب إبليس، وسببُه: حبُّ الرياسة، التي محبتها شرٌّ من محبة الدنيا، وبسببها كفر فرعون وهامان وجنودهما، وأبو جهل وقومه، واليهود»[1].

«ومن أراد علوَّ الآخرة: فليترك التعالي على الخلق، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قال العلماء: العلوّ في الأرض: طلبُ الرفعة والتعاظم والشهرة، والفساد: هو العملُ بالمعاصي والآثام.

قال عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ الرجل ليعجبه من شراكِ نعله أن يكون أجودَ من شراك صاحبه، فيدخلُ في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وقصدُه بذلك إذا أراد الفخر والتطاول على غيره؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**».

وما أكثر ما يكون هذا عند بعضِ النساء، حيث تشتري إحداهنّ أمتعةً وألبسةً قيِّمةً وثمينة، لتتفاخر بها عند قريناتها، وتتباهى بها بين

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢٢٠).

زميلاتها، فهنّ بذلك ممَّن أردن العلو في الأرض، والفخر والخيلاء، حمانا الله من ذلك»(١).

المرض الثامن: حُبّ الشهرة، وهو أنّ يسعى الإنسان لشهرة نفسه، وانتشار ذكرِه، بلا قصد صحيح من ذلك، وقد قال السلف الصالح: ما صدق الله عبدٌ أحبَّ الشُّهرة.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ تعليقًا على هذه العبارة: عَلَامَةُ المُخْلِصِ الَّذِي قَدْ يُحبُّ شُهرَةً، وَلَا يَشعُرُ بِهَا: أَنَّهُ إِذَا عُوتِبَ فِي ذَلِكَ، لَا يَحرَدُ وَلَا يُبرِّئُ نَفْسَه؛ بل يَعترِفُ، وَيَقُوْلُ: رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهدَى إِلَيَّ عُيُوبِي، وَلَا يَكُنْ مُعجَبًا بِنَفْسِهِ؛ لَا يَشعرُ بِعُيُوبِهَا؛ بل لَا يَشعرُ أَنَّهُ لَا يَشعرُ، فَإِنَّ هَذَا دَاءٌ مُزْمِنٌ. اهـ(٢).

«فحبُّ الشهرةِ قد لا يسلم منه الكثير من الناس، وهي لا تكون مذمومةً إذا كان مقصد صاحبها حسنًا، وذلك بأنْ لا يريد منها إلا نفعَ الناس وتبليغَ العلم النافع لهم؛ لأن الناس لا يُقْبِلون على من يجهلون.

وعلامةُ صحة مقصده: أنه يقبل النقد والعتاب، ويرجع إلى الحق والصواب، ولا يضيق صدره من قلة المتابعين والمحبين له، ولا يُعجب بنفسه ولا بعلمه.

وإذا رأيت نفسك تفرح وتأنس عندما يُحيط بك الناس يُسلمون عليك عندما تذهب إلى مكانٍ ما، أو رأيت كثرة من يعرفك ويُصافحك،

---

(١) الْمَعِيْنُ الْجَارِي في اسْتنباطِ الفَوَائِدِ واللطَائِفِ مِنْ صَحِيْحِ الْبُخَارِي، للمؤلف (ص٢١٨).

(٢) السير (تهذيبه) (٢/٧٠٨).

فاسْأل نفسك: هل فرحي لأني أصبحت مشهورًا مثل بقيّة المشاهير؟ وربما ذكرت ذلك لمن حولك إظهارًا لمكانتك بين الناس؟

أم فرحي لأنّ الناس انتفعوا بعلمي، وبما بذلت وسعيت؟

فإن كان الأول: فراجع نفسك وأصلح نيتك وسريرتك.

وإن كان الثاني فلا لوم على فرحك؛ بل أنت مأجورٌ على ذلك؛ وذلك لمحبتك نفع الناس»[١].

❁ ❁ ❁

وإذا حلّ مرض من هذه الأمراض في القلب: منع من دخول الإيمان أو كماله في القلب، وفقد معه صاحبه الأنس بالله وحبّه والإقبال عليه، ولو اجتهد أعظم الاجتهاد في الطاعات، وسارع إلى الأعمال الصالحات.

كرجل حلّ في مكان كثير العقارب والثعابين، فبنى فيه بيتًا، وزرع زرعًا، وكلّما عمل خرجت عليه بعض هذه الهوامّ، وإذا أراد النوم، أو الأكل، أو البناء، نغصّت عليه.

فلن ينعم بعيش ولو وفّر سبله حتى يتخلص من هذه المنغصات.

وهكذا من في قلبه شيء من هذه الأمراض والخبائث، فإنه مهما عمل صالحًا واجتهد فلن يجد للأعمال الصالحة لذة وحلاوة؛ لأنّ هذه الأمراض القلبية تحجب أثر هذه الأعمال عن القلب.

وجماع هذه الأمراض في مرض واحد، وهو اتباع الهوى، وجماع صلاح القلب في مخالفة الهوى، إيثارًا لمرضاة الرب ﷻ.

---

(١) آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِهِ ورُسُوخِهِ، للمؤلف (ص٢٥).

وإذا عوّدت ـ **أخي المسلم** ـ نفسك مخالفةَ هواها: فسوف تتلذّذ بمخالفة هواك إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك.

وصدق الشاعر:

ففي قمع أهواء النفوس اعتزازها وفي نيلها ما تشتهي ذلُّ سرمدِ

فلا تشتغل إلا بما يكسب العلا ولا ترضَ للنفس النفيسة بالرَّدِي

وما أجمل ما قاله ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي قوة قهر الهوى لذةٌ تزيد على كل لذة، ألا ترى إلى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلًا؛ لأنه قُهِر، بخلاف غالب الهوى؛ فإنه يكون قوي القلب عزيزًا؛ لأنه قَهَر؟!اهـ(١).

ومَنْ يُطْعِمُ النفسَ ما تشتهي كمن يُطْعِمُ النارَ جزلَ الحطبْ

وإني أشبه هوى الإنسان بالأغلال على عنقه، فمن كان لله تقيًّا، وحازمًا مع نفسه: كانت أغلاله رقيقة مرنة، يتحكم هو بها ولا تتحكم به، ولا تكون بيد غيره يجره لما يريد.

ومن كان عكس ذلك: كانت أغلاله غليظة قويّة، لا يستطيع الانفكاك منها، وهي بيد غيره من الشياطين، أو من جلساء السوء، أو العادات والطباع التي قل من يسلم منها.

واعلم أنّ الشيطان الذي أقسم أن يُغويك يشمّ قلبك، ويتفقَّد همّتك، فإنْ رأى منك الاستهانةَ، والضعفَ، وغلبةَ الهوى: شنّ عليك الحرب الضروس في الوسوسة، والإغواء، والتسلّط، والتمنّي.

وإنْ رآك حازمًا، ورعًا، قويّ النفس، متغلّبًا على هواك، ضعُفَتْ

---

(١) صيد الخاطر (ص٩٣).

وسوسته، وطَفِئَت نار سطوته، وقنع منك بأدنى حظّ يُصيبه منك، ولو بالتخفيف من صولتك في العلم، والعبادة، ونفع الناس، وخدمة الدين.

وقد أخبر الله تعالى أنّ الشيطان أقسم بأنْ يُضلنا ويمنّينا فقال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾؛ أيْ: لأَصْرِفنَّهُم عن طَرِيقِ الْهُدى، وَلَأُمَنِّيَنَّهُم الْمُحال الذي لا حاصل له.

«وهذَا لا يَنْحَصِرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْأُمْنِيَّةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ إِنَّمَا يُمَنِّيهِ بِقَدْرِ رَغْبَتِهِ وَقَرَائِنِ حَالِهِ»[1].

فالشيطان يُمَنِّي ويُضلّ كلّ واحد حسب رَغْبَتِهِ في الشر، وميوله للهوى، وَحسب قَرَائِنِ الأمور التي تدل على حقيقة إيمانه، وصلاح قلبه.



(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٣٦).

٢ «العناية بقوة الإيمان وزيادته»:

المؤمن التقي يكون همّه أنْ يزداد إيمانه ويقوى؛ لأنه يعلم أنّ القلب هو الأصل والأساس، فإذا صلح واستقام العمل وصلح.

ومتى تعاهد المؤمن قلبه لم يتعب في تعاهد عملِه.

والتفاضل عند الله تعالى يكون بحسب قوة إيمان العبد، لا بحسب قوة عمله وكثرتِه.

قال أبو بكر المزني رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا سَبَقَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِفَضْلِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِه[١].

وإنما وقر في قلب أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْيَقِينُ وَالْإِيمَانُ وسلامة الصدر، والنصح للأمة، وكمال الانقياد، والتصديق، حتى سُمي بالصديق، فسبق بكمال إيمانه غيرَه ولو كان أقلّ عملًا منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا رَيْبَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَقْوَى إِيمَانًا مِن عُمَرَ، وَعُمَرُ أَقْوَى عَمَلًا مِنْهُ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ.

وَقُوَّةُ الْإِيمَانِ أَقْوَى وَأَكْمَلُ مِن قُوَّةِ الْعَمَلِ، وَصَاحِبُ الْإِيمَانِ يُكْتَبُ لَهُ أَجْرُ عَمَلِ غَيْرِهِ. اهـ[٢].

وقال بعض السلف الصالح: ما فاق إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ أصحابه بصوم ولا صلاة، ولكن بالصدق والسخاء[٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص١٠٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٤٢).
(٣) تهذيب حلية الأولياء (٢/ ٤٧٨).

وهذا يدفع المؤمن إلى الاعتناء بإصلاح الباطن كاعتِنَائِه بإصلاح الظاهر أو أكثر.

وانظر إلى أويس القرَني التابعيّ الجليل، الذي شهد له النبيّ ﷺ، بأنه خَيْر التَّابِعِينَ، وأمر بعض الصحابة ومنهم عمر رضي الله عنه أن يستغفر لهم[1]: لا يكاد يعرفه أحد في زمانه، ولم يكن مشهورًا بالعلم أو الدعوة إلى الله، ولا من المبرزين بالجهاد، وإنما كان بهذه المنزلة الرفيعة، والمكانة العظيمة؛ لتحلّيه بخصالٍ عظيمة منها: عظم برِّه بوالدته، حتى ذكرها النبيُّ ﷺ صفةً له، وصلاح قلبه، وصدقه مع ربّه، الذي أداه إلى بُعده عن الشهرة والبروز، ورغبته أن يكون مع ضعفاء الناس وأوساطهم، فقد قَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ، قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ[2].

تأمل كيف أحبّ أن يكون مع عامة الناس، ولم يرغب في أن يتميز عنهم، ولو كان في ذلك راحتُه، ومِن مِنَّا يُعرض عليه مثل هذا فيمتنع!؟

وفي «صحيح مسلم»[3] أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَفَدُوا إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ.

قال النووي رحمه الله: أَيْ: يَحْتَقِرهُ وَيَسْتَهْزِئ بِهِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يُخْفِي حَاله، وَيَكْتُم السِّرّ الَّذِي بَيْنه وَبَيْن الله عز وجل، وَلَا يَظْهَر مِنْهُ شَيْءٌ يَدُلّ لِذَلِكَ، وَهَذِهِ طَرِيق الْعَارِفِينَ، وَخَوَاصّ الْأَوْلِيَاء رضي الله عنهم. اهـ[4].

---

(١) جاء ذلك في صحيح مسلم (٢٥٤٢). (٢) صحيح مسلم (٢٥٤٢).

(٣) (٢٥٤٢).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٩٤).

وثبت في «صحيح مسلم»[(١)] عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إِنْ شَاءَ اللهُ - مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**».

وكان أهل الشجرة ألفًا وأربعمئةٍ كلهم رضي الله عنهم ورَضُوا عنه، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، فهم أعظم درجةً ممن أنفقَ من بعد الفتح وقاتلَ.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾، وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هُنَا: صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ[(٢)].

ففي هؤلاء أعدادٌ كثيرةٌ لا يُكاد يعرفهم أحد، ولم يشتهروا ولم يبرزوا بأعمال ظاهرةٍ جليلة، وهم أفضل ممن أنفق من بعد الفتح وقاتل، الذين فيهم من اشتُهر وعُرف بالعلم ونشرِه؛ كأبي هريرة رضي الله عنه، والإمارة؛ كمعاوية رضي الله عنه، والجهاد؛ كخالد بن الوليد رضي الله عنه.

فلا تظنّ - **أخي المسلم** - أنّ مكانتك عند الله تعالى بحسب مكانتك عند الناس أو بحسب جهودك، وأعمالك، ونفعك للناس، فهذه يُرجى فيها خير عظيم، ولكنّ الخير الأعظم: صدقك مع الله، ومسارعتك إلى طلب مرضاتِه، وصلاح قلبك، وطهارته وسلامته من الأمراض، وإذا علم الله صدقك - وهو العليم الخبير - في أنك عازم على نصرة دينه بكلّ ما تستطيع، ومنعك من ذلك مرضٌ أو عجز: بلَّغك منازل الصديقين والشهداء والصالحين، وحُشرت معهم بإذن الله الكريم الرحيم.

---

(١) (٢٤٩٦) عن أم مبشر.

(٢) وممن قال بذلك ابن جرير الطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وعبد الرحمٰن السعدي رحمهم الله.

تفسير الطبري (٢٣/ ١٧٦)، منهاج السُّنَّة النبوية (٢/ ٢٥)، تفسير السعدي (ص٨٣٨).

فأعظم عبادة تتقرب بها إلى الله تعالى: أنْ يَطَّلِعَ اللهُ على قلبك فلا يرى فيه غيره، ولا توجُّهًا إلا له، ولا حبًّا إلا له، ولا توكّلًا إلا عليه، ولا غيرةً إلا عليه وعلى دينِه، ولا انتقامًا للنفس ونصرةً لها.

وأنْ يعلم منك أنك لا ترى لنفسك على أحدٍ حقًّا، ولا على غيرك فضلًا، ولا تُعاتب ولا تُطالب إلا ما كان لله تعالى.

وأن تكون متواضعًا تواضعًا حقيقيًّا، بحيث تصل إلى درجة أهل الصلاح والإيمان والتقى، الذي يقول أحدُهم عن قناعة تامّةٍ: مالي شيء، ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء.

وقد ثبت في الأخبار والواقع أنّ رفعة الله تعالى لأحد من الناس ليس لصلاح ظاهره، وإنما لصلاح باطنه، وإخلاص نيَّته، وصدق عزيمته، وحسن توكله، وشدة حبه لربه، وصبره على الأذى في سبيله، فاللَّهُمَّ أصلح فساد قلوبنا.



٣ «ازدراءُ النفس من أعظم وسائل تزكيتها وطهارتها من الأمراض»:

المؤمن الصادق: يشعر دائمًا أنه مقصر في حقّ الله تعالى تقصيرًا عظيمًا، ولا يرى أنه عمل العمل الذي ينبغي، فلذلك يدعو ربه كثيرًا: اللَّهُمَّ عاملني بعفوك وإحسانك وكرمك وجودك.

وسوف يلاحظ بعد ذلك أنه كلما ازداد علمًا، وقربًا إلى الله تعالى، وقارن حاله بحال النبي ﷺ والسلف الصالح: ازداد ازدراء لنفسه، وتعظيمًا لربه؛ لعلمه بعظم حقّه عليه، وتقصيره الشديد بأداء حقّ ربّه وما افترضه عليه.

ومن ازدرائه لنفسه: أنه لا يراها تستحق أن تُمدح وأن يُنْتَقم لها.

ويجعل هذا البيت نصب عينيه:

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادِّخَارَهُ[١] وَأُعْرِضُ عَنْ شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكَرُّمَا[٢]

وازدراؤه هذا لا يزيده إلا رفعة عند الله تعالى وعند الناس، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدره، وأكثر الناس فضلًا من لا يرى فضله. اهـ[٣].

ولابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبارة عظيمة، وهي قوله: مقت النفس في ذات الله من صفات الصدِّيقين، ويدنو العبد به من الله سبحانه في لحظةٍ

---

(١) أي: لادخارِه، فهو مفعول لأجله.

(٢) البيت لحاتم الطائي، يقول: إذا جهل علي الكريم احتملت جهله إبقاء عليه وادخارًا له، وإن سبني اللئيم أعرضت عن شتمه تكرّمًا.

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/ ٤١٣).

واحدةٍ أضعاف أضعاف ما يدنو بالعمل. اهـ[(١)].

«فَلَا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلصَّادِقِ مِنَ التَّحَقُّقِ بِالْمَسْكَنَةِ، وَالْفَاقَةِ وَالذُّلِّ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ لَمْ يَصِحَّ لَهُ بَعْدُ الْإِسْلَامُ، حَتَّى يَدَّعِيَ الشَّرَفَ فِيهِ.

وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ يَقُولُ كَثِيرًا: مَا لِي شَيْءٌ، وَلَا مِنِّي شَيْءٌ، وَلَا فِيَّ شَيْءٌ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ:

أَنَا الْمُكَدِّي وَابْنُ الْمُكَدِّي وَهَكَذَا كَانَ أَبِي وَجَدِّي

وَكَانَ إِذَا أُثْنِي عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ يَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي إِلَى الْآنِ أُجَدِّدُ إِسْلَامِي كُلَّ وَقْتٍ، وَمَا أَسْلَمْتُ بَعْدُ إِسْلَامًا جَيِّدًا»[(٢)].

فأين مَن يغضب ويحنق إذا لم ير تقديرًا واحترامًا من الناس، أو تأخذه الأنفةُ إذا تُكلِّم عليه ولو بحق، أو نُصح أو عُوتب!

واعلم أنّ الناس في تعاملهم مع ما يسمعون من الأذى أقسام أربعة:

الأول: يكره ذلك ويغضب، وينفعل ويُشغل باله بما قيل عنه، وبالردّ على القول وقائِله، وربما وصل إلى السباب والقطيعة.

ومثل هذا يعيش في بلاء، وتكثر مشاكلُه وهمومه، ويتجرَّع كثيرٌ من الناس الآلام منه.

وهذا هو الخاسر في الدنيا؛ لكثرة همومِه وأمراضِه وأعدائه، وقلة أحبابه، وهو خاسرٌ في الآخرة كذلك؛ لأجل الآثام المترتبة على غضبه،

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٥٢٠).

ولسانه، وحقده، وعداواته، ولتفويتِهِ الأجور العظيمة المترتبة على الصبر والحلم.

والثاني: يكره ذلك ويغضب، ولكنه يكظم غيظه ويصبر على الأذى.

ومثل هذا يعيش في بلاء، وتكثر همومه، وقد يكون أشد من الأول؛ لأنه يكتم غيظه، وإذا لم يفرّغه فقد يُصاب بالأمراض والأسقام، ولكنه لا يُؤذي غيره، فأجره على الله.

والثالث: يكره ذلك ولا يغضب؛ بل يلتمس العذر للقائل، أو يُعامله معاملة الجاهل، فيترفع عن الرد عليه والانشغال بسبّه.

فهذا أحسن ممن قبله، ولكنه لا يستفيد من نقد الناس له غالبًا، وخاصة من أصحاب الأساليب القاسية أو المغرضة.

والرابع: لا يكره ذلك؛ بل يشكر للطاعن إن كان محقًّا في قوله، ولو كان قصده أو أُسلوبُه سيِّئًا، وإن لم يتبيّن له أنه محقّ تمامًا، فإنه لا يحزن أبدًا؛ **لأنه**:

أولًا: قد يكون ما وُصف به منطبقًا عليه كله أو بعضه؛ لأنه لا يستبعد ما قيل فيه حقّه، فلا يزكي نفسه.

زحم رجلٌ سالمَ بنَ عبد الله رَحِمَهُ اللهُ فقال له سالم: بعض هذا رحمك الله، فقال له الرجل: ما أراك إلا رجل سوء، فقال له سالم: ما أحسبك أبعدت!

وقال رجل للفضيل بن عياض: يا مرائي أو يا كاذب، فبكى وقال: لم يعرفني إلا أنت.

أيّ أن الناس اغتروا بي، وأنت وقفت على حقيقتي.

قال أحد طلاب العلم المعاصرين: قال لي رجل لا أعرفه يومًا حينما قابلته: تعرفني، فقلت: لا، فقال ممازحًا: فأنت على ضلالك، ثم استحى من قوله وقال: لا أقصد ضلال الدين.

قال: ولم أجد أيّ حرج من قوله، وجعلت ألوم نفسي وأقول: لم يبعد في وصفه هذا.

قال: ووقع في نفسي كذلك أنه لو قيل لي ما قيل للفضيل لَمَا أنكرت عليه، ولقلت لنفسي: نعم أنت كاذب، ولو كنت صادقًا لصدقت مع الله تعالى، ولعملت بما علمت، ولَمَا فتر لسانك عن ذكر الله، ولصدعت بالحق ولم تخف أحدًا.اهـ.

وهؤلاء تتصاغر أنفسهم عندهم إذا مُدحوا، ويلومون أنفسهم إذا ذُمّوا، كما قال مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: ما مدَحني أحد قطّ إلا تصاغرتْ إليّ نفْسي.

ثانيًا: أنّ الله تعالى ابتلاه ليرى صبره واحتماله في ذات الله، وقد كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحون يبتلون بأشد من ذلك فصبروا، فكيف لا يصبر هو على أقل من ذلك؟

ثالثًا: أنه يحمد الله أنْ عافاه مما ابتلا به هذا الطاعن بغير حقّ، ويحمده أن جعله مظلومًا لا ظالمًا.

فهذا أفضلهم وأكملهم، وما أندره في هذا الزمان، نسأل الله تعالى أن نكون منهم.

فلا تغضب ـ **أخي المسلم** ـ ممن يصفك بصفاتٍ لا ترى نفسَك متصفًا بها، كالكذب والرياء والكسل ونحوها.

ومن أعظم نعم الله على الإنسان: أن يعرّفه بعيوبه، فتكون نصب

عينيه، ويغيّب محاسنه؛ لأنها محض جوده وعطائه، وليست من جهده وعقله وذكائه، وإذا فعل ذلك: لم يغضب إذا قلل أحد من قدره، أو تطاول عليه، أو سبّه ووصفه بصفات سيئة؛ لأنّه يعرف أن عنده عيوبًا لا يعلمها إلا الله.

وللعلامة القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام نفيس جدًّا في شرحه لقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في حديث الإفك: «ولشأني كان في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يُتلى»[1]: قال: فيه دليل على أن الذي يتعين على أهل الفضل والعلم والعبادة والمنزلة: احتقار أنفسهم، وترك الالتفات إلى أعمالهم، ولا إلى أحوالهم.

وتجريد النظر إلى لطف الله ومنته وعفوه ورحمته وكرمه ومغفرته.

وقد اغتر كثير من الجهال بالأعمال فلاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وإجابة الدعوات، وزعموا أنهم ممن يُتبرك بلقائهم، ويغتنم صالح دعائهم، وأنهم يجب احترامهم وتعظيمهم، فيُتمسح بأثوابهم، وتقبل أيديهم.

ويرون أن لهم من المكانة عند الله بحيث ينتقم لهم ممن تنقصهم في الحال، وأن يُؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال.

وهذه كلها نتائج الجهل العميم، والعقل غير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه، غافل عن جرمه وذنبه، مغتر بإمهال الله عَزَّ وَجَلَّ له عن أخذه[2]. اهـ[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) كلام نفيس جدًّا، وقد ساقه ابن القيم بلفظه ـ مع شيء يسير من التصرف ـ في كتابه جلاء الأفهام (ص٢٣٩).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥).

وقد تكون يومًا في مجلس، ويدخل رجلٌ فيسلم عليك ببرود ولم يتحفّ بك، فيأتيك شعورٌ بأنه لو عرفك، وعرف منصبك، أو مرتبتك في الوظيفة، لتحفَّى بك، وسلم عليك بحرارة، وأكرمك، وربما وددت أنَّ أحدًا عرَّفه عليك، ولو فعل ذلك لفرحت، وهذا الشعور فيه شائبةُ كبر وعلو ورؤية نفس، والذي ينبغي عليك أن تطرده من نفسك، وأنْ ترى أنك مثل غيرك من عامة الناس، ولا تحبّ أنْ تتميّز بإكرامٍ وحفاوةٍ مِن بين الناس.

وقد ينقدك مَن هو أقلُّ منك مكانةً وعلمًا وشرفًا، أو ينصحك بأسلوب جافّ: فينتابك شعور خاطف بالرد عليه لسوء أسلوبه، أو لجرأته عليك مع الفارق بينكما ـ في الظاهر ـ، فإياك أن تسمح لهذا الشعور الشيطاني بالمكث في خاطرك وقلبك ولو لثانية؛ بل بادر بطرده، فإنه من نفخ الشيطان وهمزه وأزّه ونزغِه، وركز في نصح الناصح ونقده، ودع أسلوبه له، فما لك وله؟

ويجب الحذر من أمور ثلاثة:

١ ـ تكلّف ردّ الثناء الصادق من الناس، وإظهار عدم الرضا بذلك، إذا لم يكن في الثناء محذورٌ، كالكذب أو تجاوز الحد، وأكثر من الثناء على الله تعالى، ونسبةِ الفضل له، واشْكر المثني على حبّه وحسن أخلاقه، ومن صدق مع الله فلن يغرّه ثناء أهل الأرض كلهم.

فقد ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**». رواه مسلم[١].

(١) (٢٦٤٢).

«فأخبر أنَّ حمد الناس للمؤمن بشارةٌ معجلةٌ في الدنيا كالرؤية الصالحة، كما في الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس ٦٤] قال: «هي الرؤيا الصالحة يَراها الرجل الصالح أو تُرى له»[١]، فجعل حمد الناس له في اليقظة والرؤيا الصالحة في المنام بشارة له في الدنيا، والبشارة نوعٌ من الخبر، وهو الخبر بما يسر، فالحمد هو الخبر بما يسر المحمود، ويفرحه، فإنكار فرحه ولوازم فرحه إنكارٌ للحمد في الحقيقة»[٢].

قال ابن رجب رحمه الله: إذا عمل العمل لله خالصًا، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك، لم يضره ذلك. اهـ[٣].

وصدق **سفيان بن عينية** رحمه الله حين قال: ليس يضر المدحُ من عرف نفسه[٤].

٢ ـ كثرة ذمّ النفس وعيبِها؛ حيث يُشعر بأنّه هاضم لنفسه، مُصلحٌ لسريرته، قال الحسن البصري رحمه الله: ذَمُّ الرجلِ نفسَه في العلانية مَدحٌ لها في السرّ.

وكان يقال: مَنْ أظهر عيبَ نفسه فقد زكّاها[٥].

---

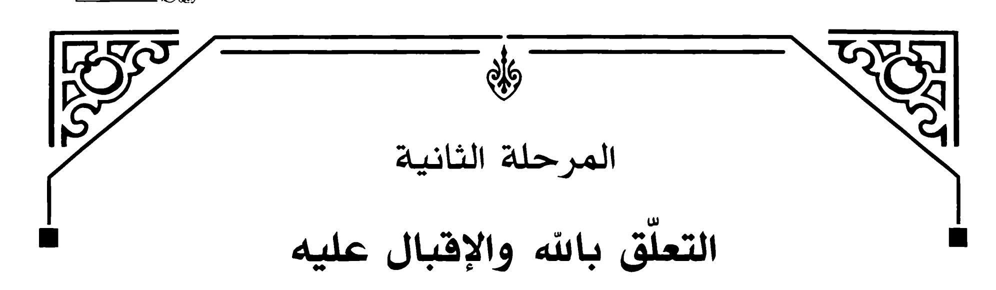
(١) رواه مسلم (٤٧٩).
(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٤٩١).
(٣) جامع العلوم والحكم تحقيق الأرنؤوط (١/ ٨٣).
(٤) موسوعة ابن أبي الدنيا (٧/ ٣٣٠).
(٥) عيون الأخبار (١/٣١٧).

٣ ـ إظهار الأحوال القلبية الإيمانيّة للناس، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إظهار الحال للناس عند الصادقين: حمق وعجز، وهو من حظوظ النفس والشيطان، وأهل الصدق والعزم لها أستر وأكتم من أرباب الكنوز من الأموال لأموالهم. اهـ[١].

نسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله، وأن يستر علينا قبائح أعمالنا بكرمه وفضله.



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٤٣١).



المرحلة الثانية

التعلّق بالله والإقبال عليه

لا يسلم القلب من الأمراض والشوائب حتى يُملأ بما يُضادّ هذه الأمراض، وأعظمها: الإيمان بالله، والإخلاص له، والصدق في طلب مرضاته، وحبّه ورجائه والتوكل عليه.

وسوف أذكر أهمّ الأمور التي تُعين على التعلّق والإقبال عليه.



١ «لا بد من الإخلاص التام في العبادة»:

الإخلاص التام في العمل يكون بأمرين:

الأمر الأول: تصفيتُه عن مراعاة وملاحظة المخلوق.

الأمر الثاني: أن يكون الدافعُ إليه حبَّ الله تعالى وتعظيمه ورجاء ثوابه ورضوانه، والتقرب إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ «وَالْإِخْلَاصُ: النِّيَّةُ فِي التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَالْقَصْدُ لَهُ بِأَدَاءِ مَا افْتَرَضَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ»[١].

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص لله في العبادة معناه: ألا يحمل العبد إلى العبادة إلا حب الله تعالى وتعظيمه ورجاء ثوابه ورضوانه، ولهذا قال الله تعالى عن محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾. اهـ[٢].

فمن عمل العمل الصالح عادة: لم يكن مخلصًا لله حق الإخلاص؛ فالإخلاص لا يعني عدم الرياء والنفاق فحسب؛ بل يعني: أن يُقدم المؤمن على العبادة بقلب محب لله، معظم له، رجاء ثوابه، وخوفًا من عقابه.

والإخلاص لله تعالى وعبادته وحده لا شريكَ له: «هو حقيقة

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٣٥٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/ ١٨).

الدين، ومقصود الرسالة، وزبدة الكتاب، وله خُلِقَ الخلقُ، وهو الغاية التي إليه ينتهون، وبذكره تَحصُل السعادةُ لأوليائه، وبتركه تكون الشقاوةُ لأعدائه، وهو حقيقة لا إلٰه إلا الله، وعليه اتفقت الرسل، ولأجلِه قامت السموات والأرض»[١].

وينبغي للمؤمن «أَنْ يُخْفِيَ أَحْوَالَهُ عَنِ الْخَلْقِ جُهْدَهُ، كَخُشُوعِهِ وَذُلِّهِ وَانْكِسَارِهِ؛ لِئَلَّا يَرَاهَا النَّاسُ فَيُعْجِبُهُ اطِّلَاعُهُمْ عَلَيْهَا، وَرُؤْيَتُهُمْ لَهَا، فَيُفْسِدُ عَلَيْهِ وَقْتَهُ وَقَلْبَهُ وَحَالَهُ مَعَ اللهِ، وَكَمْ قَدِ اقْتَطَعَ فِي هَذِهِ الْمَفَازَةِ مِنْ سَالِكٍ؟ وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ»[٢].

و«مَن آثر الله تعالى على غيره: آثَرَه اللهُ على غيره»[٣].

فمن قدّم ما يريد الله على ما يريد هو أو غيره من حبيب أو رئيس: قدّمه الله على غيره، ونشر له من الخيرات والبركات والفتوحات والأرزاق الحسية والمعنوية، فخيرات الله تسرع إلى من أسرع إليه ولم يقدّم أحدًا عليه.



(١) جامع المسائل لابن تيمية (١/ ٦)، مع شيء من التصرف.
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٥٢٠).
(٣) طريق الهجرتين لابن القيم رحمه الله (ص٦٣٨).

٢ «لا بد للقلب أن يخشع»:

«**الْخُشُوعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ**: الِانْخِفَاضُ، وَالذُّلُّ، وَالسُّكُونُ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]؛ أَيْ: سَكَنَتْ، وَذَلَّتْ، وَخَضَعَتْ، وَمِنْهُ وَصْفُ الْأَرْضِ بِالْخُشُوعِ، وَهُوَ يُبْسُهَا، وَانْخِفَاضُهَا، وَعَدَمُ ارْتِفَاعِهَا بِالرِّيِّ وَالنَّبَاتِ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

وَالْخُشُوعُ: قِيَامُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ بِالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَالْجَمْعِيَّةِ عَلَيْهِ»(١).

فالمؤمن يجب عليه أن يتصف بصفة الخشوع لله؛ بأنْ يكون ذليلًا له، خاضعًا لأحكامه، مستجيبًا لأوامره، مسارعًا إلى مرضاته، ومن لم يفعل ذلك فليس من الخاشعين المخبتين لله.

قال ابْن مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ». رواه مسلم(٢).

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَن تَخْشَعَ﴾: أي: تذلّ وتلين لذكر الله وتعظيمه.

فالله تعالى عاتب الصحابة رضي الله عنهم على عدم خشوعهم إذا سمعوا كلام الله، وذكروه بألسنتهم، مع أنهم كانوا في مكة، وكانوا يلقون الشدة

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/٥١٦).
(٢) (٣٠٢٧).

والأذى من الكفار، حتى أثر ذلك في انشغال قلوبهم، ومع ذلك عاتبهم الله تعالى على عدم خشوعهم، فكيف بمن جاء بعدهم، وعاشوا في أمن وطمأنينة؟

والْمُؤْمِن قَدْ يَكُونُ لَهُ خُشُوعٌ وَخَشْيَةٌ، وَقَدْ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ، فعاتب الله من ليس في قلبه مزيد خشوع وخشية.

فالمراد بقوله: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: خشوع القلوب إذا ذُكر الله وإذا تُلي القرآن كقوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تَرِقَّ وتلين ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ المعنى: أنه يجب أن يورثهم الذِّكْر خشوعًا. اهـ[(١)].

وكثير من الناس لا يخشع إذا طرأ على قلبه ذكر الله، فلا يحصل له الخوف والخشية والرجاء والتعظيم؛ بل يمر عليه ذكر الله مرور الكرام.

والخشوع الذي أمر الله به عند ذكره وتلاوة كتابه: هو وَجَلُ القلب الذي أثنى الله على أهله فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.



(١) زاد المسير (٤/ ٢٣٥).

٣ «النظر إلى الْمُنْعِم لا إلى النِّعْمَة فقط»:

كثير من الناس ينشغلون بالفرح واللذة بنعمة العلم، أو العمل الصالح، أو العافية، أو الأمن، عن الفرح بالْمُنعم ﷻ.

والمؤمن الصادق يكون فكره ونظره متّجهًا إلى المنعِم ﷻ وقت النعمة، وتكون محبته له تعالى لِمَا هو له أهل، لا لأجل إحسانِه ونعمه عليه فحسب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الفرح بالنعمة قد ينسيه المنعِم[(١)]، فيشتغل بالخَلْعة التي خلعها عليه عنه[(٢)]، فيطفح عليه السرور، حتى يغيب بنعمته عنه، وهنا يكون المكر إليه أقرب من اليد للفم. اهـ[(٣)].

وقال بعض المحققين: من كان نظره في وقت النعمة إلى المنعِم لا إلى النعمة كان نظره في وقت البلاء إلى المبتلِي لا إلى البلاء، وحينئذ يكون غَرِقا في كل الأحوال في معرفة الحق سبحانه، وكلٌّ من كان كذلك كان أبدًا في أعلى مراتب السعادات.

أما من كان نظره في وقت النعمة إلى النعمة لا إلى المنعِم كان نظره في وقت البلاء إلى البلاء لا إلى المبتلِي، فكان غرقًا في كل الأوقات في الاشتغال بغير الله، فكان أبدًا في الشقاوة؛ لأنَّه في وقت وجدان النعمة يكون خائفًا من زوالها فكان في العذاب، وفي وقت فوات النعمة كان مبتلىً بالخزي والنكال، فكان في محض السلاسل والأغلال، ولهذا التحقيق قال لأمة موسى:

﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾، وقال لأمة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾. اهـ.

---

(١) وهو الله.

(٢) أي: يشتغل بهذه النعمة التي أنعمها الله عليه عنه، فينسى شكره وحمده والثناء عليه.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/١٠٦).

٤ «مثال لحال المؤمن في خوفه ورجائه وحبّه لربّه»:

لو أنّ رجلًا أقدم على وظيفة شريفة خطيرة، ولا يُقبل لها إلا القليل من الناس، والمقبلون على الوظيفة يُعدّون بالآلاف، وهذا الرجل عاطل، وقد ركبته ديون، وراتب الوظيفة أكثر من مائة ألف في الشهر، مع تأمين السكن والدواء والسيارة.

ومن شروط الوظيفة: أنْ يمتحن خلال ستة أشهر في أخلاقِه وسلوكه وانضباطه في عملِه وخارج عمله، وقد وضعوا عليه من يرقبه في جميع أحواله، ولا يراهم ولا يعرفهم، ونشرت كمرات مراقبة كذلك في كل أماكن وجوده.

فسوف ينضبط هذا الرجل أشد الانضباط في العمل والخلق والسلوك والأدب، وسوف يدقق أشد التدقيق في ذلك، وسوف يعامل من يسيئ إليه بالعفو والصفح، ويدفع السيئة بالحسنة؛ كيلا يخسر الامتحان، وسوف يعيش بين خوف ورجاء، وسعادة ووجل طوال فترة الامتحان.

فإذا تذكر الجائزة: فرح وانشرح صدره، ودفعه ذلك إلى المزيد من البذل والتضحية والتحمل والإخلاص والصبر.

وإذا تذكر شدة الشروط، وأنه قد يكون ارتكب خطأ يُؤاخذ عليه، وسلوكًا سيئًا يكون سببًا في ردّه وإبعاده عن هذه الوظيفة الشريفة: خاف ووجل، ودفعه ذلك إلى الحرص على عدم الخطأ.

وهذا مثال لتقريب حال المؤمن في هذه الحياة، فإذا تذكر أنه موعود بجَنَّاتِ عَدْنٍ، تجري بين جوانبها وأرجائها الأنهار، من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عين رأت

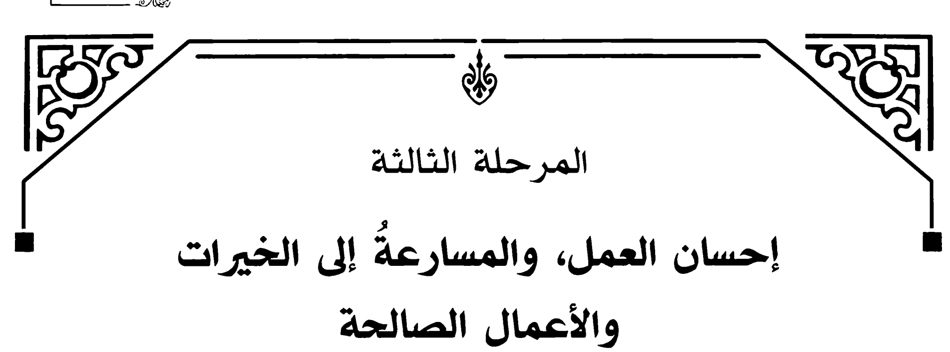
ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤونَ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَهم فِيهَا خَالِدُونَ: طارَ قلبُه فرحًا وشوقًا ورجاءً، ودفعه ذلك إلى المزيد من العمل الصالح، والزهد في الدنيا الفانية.

وإذا تذكر أنّ النار مصير من ظلم وفرّط وأذنب: خاف أن يكون ممن فرط وتكاسل وأذنب ولم يأت بالطاعات كما ينبغي، ويدفعه ذلك إلى عدم الاتكال على نفسه، وعلق قلبه بخالقه، وبذل قصارى جهده، وكان حذرًا كلّ الحذر من التفريط والكسل والذنوب، ولم ينتقم لنفسه، وبذلها رخيصة في سبيل الله.

وإذا تذكر أنّ ربه وصف نفسه بأنه رحمان رحيم غفور كريم ودود قريب مجيب، وأنه أكثر في القرآن من ذكر الجنة والنار لأجل أن نعمل لأجل الجنة، ونحذر من النار، وأقام الحجج والبراهين، وأرسل رسولًا دعا وأنذر وبلّغ أحسن البلاغ: أحبّه حبًّا عظيمًا.

وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن في الدنيا.





المرحلة الثالثة

إحسان العمل، والمسارعةُ إلى الخيرات والأعمال الصالحة

المؤمن مطالب بإحسانِ أعماله الصالحة، والمسارعة إلى ذلك، وكلما أسرع إلى الله تعالى بالعمل الصالح، أسرع إليه ـ ربّه الكريم الجواد الوهاب ـ بالخير والبركة والزيادة.

وإليك ـ **أخي المسلم** ـ هذه الوصايا التي تستعين بها بعد الله تعالى على إحسان عملك، ومسارعتك للخيرات والأعمال الصالحة:



١ «الصبر على عبادةِ الله تعالى»:

أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بالاصطبار على عبادته وطاعته فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

والِاصْطِبَارِ: شِدَّةُ الصَّبْرِ عَلَى الْأَمْرِ الشَّاقِّ.

فمن أراد التوفيق والسعادة والرفعة فعليه بالإكثار من عبادة الله بقلبه وجوارحه.

وفي الإكثار من العبادات فضائل كثيرة، فمنها:

١ ـ الانتفاع التامُّ بمواعظ القرآن وحِكَمِه وأخبارِه، قال تعالى في نهاية سورة الأنبياء، التي ملأها بالأخبار والمواعظِ البالغة، والوعدِ والوعيد والبراهينِ القاطعة، الدالة على التوحيد وصحةِ النبوة: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

ولذلك تجد كثيرًا من الناس لا يجد عند قراءة القرآن لذّة ولا خشوعًا، ولا يبكي ولا يتّعظ؛ والسبب في ذلك: أنه مُقلٌّ من عبادة الله والإقبال عليه.

٢ ـ الحصول على السعادة والطمأنينة، وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ فَلْيَلْزَمْ عَتَبَةَ الْعُبُودِيَّةِ.اهـ.

٣ ـ أنّ العابد في زمن الفتن له أجر الهجرة إلى النَّبيِّ ﷺ.

قال ﷺ: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ**(١) **كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**». رواه مسلم(٢).

---

(١) أي: الفتنة واختلاط أمور الناس.

(٢) (٢٩٤٨).

وله أجرُ خمسين من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ، قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ القَبْضِ عَلَى الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ، قَالَ: بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْكُمْ**»[١].

وفي هذا بيانٌ أنّ زمن الفتن ليس شرًّا محضًا؛ بل فيه منافع عظيمةٌ لأهل الإيمان والعبادة، فلا ينبغي الانشغال بذمّ أزمنة الفتن وأهلِها عن جني المكاسب التي لا تتحقق إلا فيها.

وهناك بعض الناس يفعل العبادات:

١ ـ إما رجاءً في الثواب وخوفًا من العقاب فحسب.

٢ ـ وإما طمعًا في حصول خير، أو زوال شرّ، فتجده يدأب في العبادة عند ذلك، فهذا إذا وقعت عليه مصيبة: تساءل: أين الفرج وأنا أعبد الله وأمتثل أمره!.

وربما لو تأخر الفرج واشتدت المصيبة: تكاسل في العبادة، أو انتكس والعياذ بالله.

٣ ـ أو مُتكلّفًا في قيامه بها، وشاقّةً عليه.

٤ ـ أو غير معترفٍ ـ دومًا ـ بتقصيره في حقّها، وغير متضرعٍ ـ صدقًا ـ إلى الله في قبولها.

وآخر يفعل العبادات:

١ ـ حبًّا لله، وفرحًا به؛ إذ شرّفه بأن هداه وجعله عبدًا له لا لهواه ولا للشيطان، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «مِنْ أَعْظَمِ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ: الْفَرَحُ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٣٤١).

بِاللهِ، وَالسُّرُورُ بِهِ، فَيَفْرَحُ بِهِ إِذْ هُوَ عَبْدُهُ وَمُحِبُّهُ، وَيَفْرَحُ بِهِ سُبْحَانَهُ رَبًّا وَإِلَهًا، وَمُنْعِمًا وَمُرَبِّيًا، أَشَدَّ مِنْ فَرَحِ الْعَبْدِ بِسَيِّدِهِ الْمَخْلُوقِ الْمُشْفِقِ عَلَيْهِ، الْقَادِرِ عَلَى مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ وَيَطْلُبُهُ مِنْهُ، الْمُتَنَوِّعُ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَالذَّبِّ عَنْهُ». اهـ[1].

٢ ـ ويفعلها تعبّدًا له، وامتثالًا لأمرِه، لا طمعًا في حصول خير، أو زوال شرّ، فلا ينتظر من قيامه بالعبادة أيّ مكافأة ومقابلٍ عليها في الدنيا.

بل هو يقول بلسان حاله ومقاله: أنا عبدك، فما أعطيتني فهو محض كرمك وجودك وفضلك، وإن منعتني وحرمتني فهذا بذنبي وتقصيري وعدلك.

قال لي أحدُ مَن ابتُلي بمرض طال به واشتدّ عليه: كنت أتعبّد لله في بعض الطاعات من أجل الشفاء من المرض الذي أصابني، حتى يئست من الفرج، وشعرت أن الأمر بلا جدوى، ففترت عن العبادة، وقلّلت من بعض التعبّدات، حتى وقفت على هذه الجملة: (اعبد الله حبًّا لله، وتعبّدًا له، وامتثالًا لأمرِه)، فشعرت حينها أني أسلمت من جديد!

٣ ـ ويفعلها متلَذّذًا بها ومستريحًا بها، وفرحًا بتوفيق الله وهدايته له.

٤ ـ ويفعلها وهو معترف بتقصيره في حقّها، ومتضرع إلى الله في قبولها.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/١٠٦).

٢ «العناية بحسن العمل لا بكثرته»:

كثير من الناس يحرص على جمع الحسنات، بكثرة الصلاة، أو الصدقة، أو دعوة الكفار للإسلام، أو إلقاء الدروس أو الكلمات ونحوها من الطاعات الشريفة، ولكنه لا يهتمّ بحسن واتقان عمله.

وحسنها: هو أنْ تكون على السُّنَّة، وخالصة لله، وتصل أعمالُه وقرباتُه إلى قلبِه، فيصلح ويخشع ويُنيب ويعظم حبّه لربه، وتوكله عليه، وخوفه منه، ورجاؤه له، ويُخرج من قلبه العِلل والأمراض والحظوظ، التي تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه.

وقد انشغل كثيرٌ من الناس بالأعمال الظاهرة، وهؤلاء قد فوّتوا الأعلى بتحصيل الأدنى، وقدّموا المهمَّ على الأهم، والوسيلةَ على المقصود والغاية، وإنما شرعت الأعمال الظاهرة لإصلاح القلب واستقامته، فالأعمال الظاهرة وسيلةٌ، وصلاح القلب واستقامته وتوجهه لله هو الغاية.

«فنسبة النية إلى العمل الظاهر كنسبةِ الروح إلى الجسد، ثم إن الروح إن كانت طيبةً كان الجسم طيبًا، وإن كانت خبيثة كان الجسم خبيثًا، فكذلك العمل والنيّة».اهـ(١).

فكما أنّ العناية بالجسد دون الروح لا ينفع، فكذلك العناية بالعمل دون النيّة لا ينفع.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: إنّ لله على العبد عبوديتين: عبودية باطنة

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية (١/٦).

وعبودية ظاهرة، فله على قلبه عبودية، وعلى لسانه وجوارحه عبودية، فقيامه بصورة العبودية الظاهرة مع تعرّيه عن حقيقة العبودية الباطنة مما لا يقربه إلى ربه، ولا يوجب له الثواب وقبول عمله؛ فإن المقصود امتحان القلوب وابتلاء السرائر، فعمل القلب هو روح العبودية ولبُّها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح.

والنية هي عمل القلب الذي هو ملك الأعضاء.

والمقصود بالأعمال كلها ظاهرها وباطنها إنما هو صلاح القلب وكماله وقيامه بالعبودية بين يدي ربه وقيومه وإلٰهه، ومن تمام ذلك قيامه هو وجنوده في حضرة معبوده وربه، فإذا بعث جنوده ورعيته وتغيب هو عن الخدمة والعبودية فما أجدر تلك الخدمة بالرد والمقت. اهـ[(١)].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَلَمْ يَقِلْ: أَكْثَرُ عَمَلًا بَلْ ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ حَسَنًا حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا للهِ عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ وَاحِدًا مِنْ هَذَيْنَ الشَّرْطَيْنِ بَطَلَ وَحَبِطَ. اهـ.

وعلّم النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يقول في دُبُرِ كُلِّ صَلَاة: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[(٢)]، ولم يقل: كثرة عبادتك.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٩٢).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣).

ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾، ولم يقل: من المكثرين من العمل.

وإنما شرع الله تعالى لنا العبادات لمصلحتنا ومنفعتنا وصلاح ظواهرنا وبواطننا.

فحينما يقول العبد: سبحان الله، هل سيزداد الله تنزيهًا؟ لا، فهو المنزّه عن كلِّ نقص.

وحينما يقول: الله أكبر، هل سيزداد عظمة؟ لا، فهو العظيم ﷻ.

وحينما نصلي ونصوم ونحج له، هل ستنفعه طاعاتنا؟ لا، فهو الغني عنا سبحانه.

وحينما يقول: الحمد لله، هل سينفعه حمدنا؟ لا، فهو المحمود في السماوات والأرض، و﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، وهو - تعالى - الذي ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾.

وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديث القدسيّ: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**». رواه مسلم[١].

إذن، لماذا نذكر الله ونصلي ونصوم؟

---

(١) (٢٥٧٧).

لأجل صلاحنا وتزكيتنا، فإذا لم تعد هذه العبادات علينا وعلى قلوبنا بالنفع والصلاح والإيمان فإننا تركنا المقصود الأعظم من مشروعيّة هذه العبادات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بَيَانٌ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَالْمَصْلَحَةِ؛ أَيْ: ذِكْرُ اللهِ الَّذِي فِيهَا أَكْبَرُ مِن كَوْنِهَا نَاهِيَةً عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ لِنَفْسِهِ. اهـ[١].

وأمر الله تعالى نبيّه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنْ يُقيم الصلاة لأجل ذكره تعالى فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معناه: أقم الصلاة لتذكرني فيها. اهـ[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واللامُ: لامُ التَّعْليل؛ أي: أقم الصَّلاة لأجل ذكري. اهـ[٣].



---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (٢٠/١٩٣).
(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٢٨٤).
(٣) الوابل الصيب (ص٧٤).

٣ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾:

لو تأمَّلت في أعظم وأهم أسرار نجاح الناجحين في الدِّين والدنيا أو أحدِهما، وسبب رفعتهم وعلوّ كعبهم، لوجدت السرّ في هذه الآية العظيمة.

فأصحاب الهمم الطامحون للوصول إلى أعلى القمم: يُبادرون إلى سلوك أحسن الأقوال والآداب والنصائح والحكم، فيفوزون بأعلى الدرجات، وأرفع المقامات، وأكمل الصفات.

فلا يقنعون بالحسن من كلّ جنس؛ بل يبحثون عن الأحسن في كلّ شيء فيتبعونه ويعملون به.

فإذا دعتك نفسُك ـ **أخي المسلم** ـ للرضا بالدون، أعطتك دفعةً قويةً، وجرعة منشطةً، لعدم الرضا إلا بالأكمل والأحسن في الأخلاق والعلم والعبادة والقناعة.

كيف وقد بدأها وختمها الله تعالى بقوله: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

ومن منا لا ينشط إلى اتباع الأحسن والأكمل، وربه الرحيم به، والمحسن إليه، يبشره إن فعل ذلك، «وهذا شاملٌ للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه

في الجنة»[١].

ثم يعطيه أعظم شهادة وأكمل وسام: وهو أنه صاحب العقل، وأنه على الهدى، وأما من تخلّف عن ذلك فليس كذلك.

وقد قالت الحكمة: من أرادني فليعمل بأحسن ما علم.

ومن لازم الآية كما قال بعض المفسرين: «أن يكون المؤمن نقَّادًا في الدين، يميز بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، فإذا اعترضه أمران: واجب وندب، اختار الواجب، وكذلك المباح والندب، حِرْصًا على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثوابًا».

ويدخل في الآية دخولًا أوليًّا: اتِّباع أحسن ما في القرآن والسُّنَّة، فإذا استمع المؤمن إلى أوامر الله اتَّبع أحسنها، نحو القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء، والإبداء والإخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وكما أنّهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فإنهم يختارون من الكلام أحسنه، امتثالًا لأمر الله تعالى لهم بقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

فما أكمل عقولهم: ينتقون أحسن القول ليعملوا به، وينتقون أحسن القول ليتكلّموا به.

فمن عمل بهاتين الآيتين فقد كمل عقله، وعلت همّته، وكثر أحبابه، وقلّ خصومُه، وتبوّأ في الدنيا والآخرة أرفع الدرجات، وأعلى الكرامات.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٢١).

وتأمل كيف ذكر في كلتا الآيتين: عبادي! وهذا يدفعُ العبد الفقير الحقير المسكين إلى الأخذ بوصيّة سيدّه ومولاه الرحيم به، الذي شرّفه بأن جعله من خاصة عباده.

فإذا أردت ـ **أخي المسلم** ـ أن يُمكنك الله، ويرفع شأنك، ويُفيض عليك من بركاته، وألطافه، ويزيدك علمًا لا تستطيع تحصيله بمجهودك: فَأَرِ الله صدقك في أنك ستعمل بأحسن ما تعلم، وتتكلم بأحسن الكلام.



٤ ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾:

من أعجب الأحاديث وأعظمها تأثيرًا على المؤمن الموفق: ما رواه البخاري[(١)] عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْن الْمُعَلَّى رضي الله عنه أنه قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي، فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ: «**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ فَقُلْتُ: كُنْتُ أُصَلِّي، فقال: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]».

وهنا سؤلان:

السؤال الأول: ألم يستجب أبو سعيد للنبي ﷺ! بلى، فقد قال: ثُمَّ أَتَيْتُهُ.

السؤال الثاني: ألم يكن مشغولًا في صلاته وإقباله على ربّه تبارك وتعالى؟ بلى، فلماذا لامه وهو في عبادة ربه؟

والجواب: أنَّ أبا سعيدٍ استجاب بعد تأخر، فمن استجاب لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ولكنْ تأخَّر، فقد استحقّ العتاب واللوم.

وتأخرُ أَبِي سَعِيدٍ كان لانشغاله بالمفضول عن الأفضل والأكمل، وهو الاستجابة لنداء النبي ﷺ، وهو فرض واجب، وصلاته كانت نافلة.

فما عذرُ من يتأخر عن الصلاة وهو يسمع نداء الله عبر الأذان (حي على الصلاة حي على الفلاح)؛ بحجة أنه مشغول في طلب العلم أو الذكر أو الدعوة، فضلًا عن الأمور المباحة؟

وما عذر من يتأخر عن التوبة من معاصيه وذنوبه، والله تعالى قد

---

(١) رقم: (٤٤٧٤).

كرر في القرآن الأمر بالتوبة في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

فاحذر ـ **أخي المسلم** ـ من التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ «فإنك إن تهاونت به ثبَّطك الله، وأقعدك عن مَرَاضِيه وأوامِره عقوبةً لك، قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾»[(١)].

وانظر إلى سرعة استجابة الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ بعد هزيمتهم في معركةِ أُحُدٍ، وإثخان العدوّ بهم، وأكثرهم جريح، وقد بلغ منهم الجهد والمشقة نهايته، فنَادَى فِي النَّاسِ بِاتِّبَاعِ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا رجع إلى المدينة بمن بقي من أصحابه، وقالَ: (مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ؟) فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، فسار بهم حَتَّى بَلَغَ حَمْرَاءَ الْأَسَدِ، مُرْهِبًا لِلْعَدُوِّ، فَرُبَّمَا كَانَ فِيهِمُ الْمُثْقَلُ بِالْجِرَاحِ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَشْيَ وَلَا يَجِدُ مَرْكُوبًا، فَرُبَّمَا يُحْمَلُ عَلَى الْأَعْنَاقِ، وَكُلُّ ذَلِكَ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[(٢)].

فما عذر من هو في صحة وأمن وفراغ، ومع ذلك يتأخر في الاستجابة لله ولرسوله ﷺ؟

ومن أعظم ثمرات سرعة الاستجابة لله ورسوله ﷺ: حصول التثبيت في الأوامر والنواهي والمصائب، وعند الموت وفي القبر، والإعانة على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: المفهم (٦/ ٣٧٣).

والعبد لا يستغني عن تثبيت الله طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه، عبده ورسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

فإذا كان نبيّه وخليله العالم بربه لم يثبت إلا بتثبيت الله له: كان لزامًا على من نصح نفسَه أن يستعين بالله على تثبيته له، وأن يدعوه دعاء الغريق.

ومن لم يكن مبادرًا إلى العمل بما أُمر به وترك ما نُهي عنه: فحريٌّ به ألا يثبت في الدنيا على الحق، وأن يميل مع كل ناعق، وأن تتخطَّفه الشبهات، وتزلزله شهوات المناصب أو المال أو الجاه أو النساء أو الشهرة.

وإذا لم يثبت المسلم على الحق وهو في كامل قواه فكيف سيثبت يوم تخور قواه عند الموت؟

قال ابن القيم رحمه الله: إذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطَّل لسانه عن ذكرِه وجوارِحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من أَلَمِ النزع، وجمعَ الشيطانُ له كلَّ قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم على ذلك؟

فهناك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا

وفي الآخرة. اهـ(١).

ومما يُستفاد من الحديث: العناية بتقديم الأولويات، والبداءة بالأهم ثم الأهم، وقد ذكر العلَّامةُ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢)، أنَّ الشَّيَاطِين يَتَحَيَّلُونَ على بَنِي آدَمَ ويأتون إليهم بكلِّ طريقٍ ووسيلة، لِيُوقِعُوهُمْ فِي وَاحِدَةٍ مِنْ ثمانيَةِ حيَلٍ وَلَا بُدَّ.

ثم ذكر الحيل، وذكر أنّ الشياطين إذا عجزوا عن إشْغال المسلم بالْمُبَاحَاتِ وَالتَّوَسُّعِ فِيهَا، وكان حافظًا لوقته شحيحًا به، يعلم مقدار أنفاسه، نَقَلُوهُ إِلَى الحِيْلَةِ السادسة، وهي أن يُشْغلوه بالطَّاعَاتِ الْمَفْضُولَةِ، عَن الطَّاعَاتِ الْفَاضِلَةِ الْكَثِيرَةِ الثَّوَابِ، فَيُعْمِلُ حِيلَتَهُ فِي تَرْكِهِ كُلَّ طَاعَةٍ كَبِيرَةٍ نافعة، إِلَى مَا هُوَ دُونَهَا وأقلَّ منها، فيأمُرُه بفعل الخير المفضول، ويحثُّه عليه، ويُحَسِّنه له، حتى يدعَ ما هو أفضلُ وأعلى منه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقلَّ من يتنبه لهذا من الناس، ولم يصل علمُه إلى أنَّ الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصَّل بها إلى بابٍ واحد من الشر، وإما ليفَوِّت بها خيرًا أعظمَ وأجلَّ وأفضل من تلك السبعينَ بابًا. اهـ(٣).



---

(١) الجواب الكافي (ص٢٩).

(٢) في أعلام الموقعين (٢/ ٢٩١).

(٣) بدائع الفوائد، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا ـ عادل عبد الحميد العدوي ـ أشرف أحمد الج: (٢/ ٤٨٥).

٥ «قصةٌ يرويها رجلٌ ذاق طعم الخشوع، وكيف تغيّر حاله بعد ذلك»:

الصلاةُ هي الباب الذي يَلِجُ منه المحبون إلى محبوبهم، والقنطرة التي بها يجتاز المتقون إلى قرة عيونهم، والسبب الذي به ينال المخبتون كلّ مرادهم.

قال بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن مثلك يابن آدم؟ خلّي بينك وبين المحراب والماء؟ كلما شئت دخلتَ على الله عَزَّوَجَلَّ ليس بينك وبينه ترجمان(١).

قال أحدُ طلاب العلم المعاصرين: صلَّيت يومًا صلاةً ليست كصلاتي المعتادة، حيث نَزَلَتْ عليّ سكينةٌ لم أعهد مثلها، ولذَّةٌ وخشوعٌ وتدبّر في صلاتي، فأطلتُ في صلاتي؛ لِمَا ذُقْت مِن اللذة والأنس والسعادة والإيمان، وحينما سلّمت من صلاتي قلت في نفسي: لقد عرفت السبب في إطالة النبي ﷺ والسلف الصالح صلاتهم، ودوامِهم وحرصِهم عليها، وهو أنهم ذاقوا كما ذقت اليوم، وشعروا بما شعرت، وهم بلا شك ذاقوا أكثر فهم في جنةٍ ونعيم، وتذكرتُ قولَ الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ.

وقولَ الْآخَرُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

---

(١) حياة السلف بين القول والعمل للمؤلف (ص١٩٧).

فحرصت بعد هذه الصلاة على أنْ أقرأ وأبحث عن أسباب الخشوع في الصلاة، وبعد كثرةِ المطالعة والحرص والدعاء تغيّرتْ نظرتي تجاه الصلاة تمامًا، وقد كنت من النادر أنْ أذهب قبل الأذان أو معه للمسجد.

فكنت بعد ذلك أخرج من البيت للمسجد مع الأذان أو بعده مباشرةً، شوقًا ورغبة في ذوق طعم الخشوع في الصلاة، وطالما حُرمت هذا الطعم العجيب، وجعلت أرقب وقت الصلاة الأخرى لأنهل من معينها وطعمِها وأسرارِها، وذقت طعم الصلاة وحلاوتها، وجعلتُ أُطيل فيها على غير العادة.

وقد كنت في السابق أُجاهد نفسي في دفع الوساوس والأفكار، وربما ضيّعت المجاهدة بسبب تغلُّبها وكثرتِها.

فأحمد الله تعالى أنّ همِّيَ كلَّه بعد ذلك أصبح مصروفًا إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبي شأنَ الصلاة وعبوديةَ ربي تبارك وتعالى فيها بقدر الإمكان.

وأنا أتطلع إلى أنْ أصل إلى المرتبة الخامسة من مراتب الناس في الصلاة، التي ذكرها العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: الناس في الصلاة على **مراتب خمسة:**

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبُه في مراعاةِ حدودها وحقوقها؛ لئلا يُضَيِّع شيئًا منها؛ بل همُّه كلُّه مصروفٌ إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها واتمامها، قد استغرق قلبُه شأنَ الصلاة وعبوديةَ ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ﷻ ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له ممتلئًا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قرير العين به.

فالقسم الأول: معاقب، **والثاني**: محاسب، **والثالث**: مُكَفَّرٌ عنه، **والرابع**: مثاب، **والخامس**: مُقَرَّبٌ من ربه؛ لأن له نصيبًا ممن جُعلت قرة عينه في الصلاة.

فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة، وقرت عينه أيضًا به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كلُّ عين، ومن لم تقر عينُه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. اهـ[١].

---

(١) الوابل الصيب (ص٢٣ ـ ٢٤).

قال: وكنت في السابق أتعَجَّب من حال من إذا سمع النداء قام من فوره إلى الصلاة، وأقول: هذا صعبٌ جدًّا، كيف يترك حلاوة الحديث مع الأصحاب، أو الراحة أو الانشغال بشيءٍ يستمتع به، ويترك ذلك بكلّ سهولةٍ، ويذهب إلى الصلاة، وهذا ديدنه كلّ وقت!

ولكن بعد أنْ منّ الله تعالى عليّ بالعلم والخشوع في الصلاة: جعلتُ أعجب ممن لا يُبادر إلى الصلاة، التي وجدت فيها اللذة والسعادة والأنس والطمأنينة.

ولكني لم أستوعب كلام ابن القيم عن المرتبة الخامسة، وكنت أظنها مرتبة كانت في عصر الصحابة والسلف الصالح فقط، ولا أظن أن أحدًا بعدهم سيصل إلى هذه المرحلة إلا ما ندر.

قال: ثم جعلت أزداد إقبالًا على الصلاة، وخشوعًا فيها، وبكورًا إليها، حتى وصلت لهذه المرحلة في كثيرٍ من صلواتي، فازددت فيها بعد ذلك خشوعًا وطمأنينةً، وكثيرًا ما أبكي حبًّا لله، أو خوفًا منه، أو رجاء لثوابه، أو تعظيمًا له، وأستشعر عظمته وأنا أناجيه، وأتأمل في كلِّ ذكر أقوله، وأتدبر بكل آية أقرؤها أو أسمعها من الإمام، وأدعوه بصدق ويقين بإجابتي. اهـ.

فانظر ـ **أيها القارئ الكريم** ـ كيف يمكن للمسلم أن يجد اللذة في العبادة، وهذا جزء معجّلٌ من ربنا الكريم، وما ادّخر في الآخرة أعظم وأجلّ.

فحريٌّ بنا أنْ نجاهد أنفسنا، ونعظّم شأن الصلاة في قلوبنا، وقلوب من تحت أيدينا، فهي باب الثبات على الدين، والصبر على ما يُكابده الإنسان في الدنيا، وهي نورٌ للمسلم في القبر، ولها بابٌ من أبواب الجنة، يدخل منه أهلُ الصلاة الذين عظّموا شأنها، وأقاموها في الدنيا.

٦ «وسائل الخشوع في الصلاة»:

إذا أردت ـ **أخي المسلم** ـ أنْ تخشع في صلاتِك، وتذوق اللذّة والراحة في الصلاة: فاستحضر أنك تناجي ربك في كلّ ما تقول، قال النبيّ ﷺ: «**إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ**»[(١)].

وقد سئُل سفيان الثوري رحمه الله عن الرجل يصلي أي شيء ينوي بصلاته؟ قال: ينوي أنْ يناجي ربه[(٢)].

واستحضر أنّ الله تعالى يراك ويسمعك، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، فهو يراك ويراقبك وهو شهيدٌ عليك حال قيامك وحدك، وحال قيامك وركوعك وسجودك مع الناس، وحال قراءتك وجميع أعمالك، فمن يراك ويسمع كلامك إذا دعوته وناجيته وذكرته: هل يليق بك أن تغفل عنه وهو ليس بغافل عنك؟ هل من الأدب أن تفكر بغيره ويشرد ذهنك وأنت واقف بين يديه تناجيه ويردّ عليك إذا قرأت الفاتحة؟

فإذا سبّحت أو دعوت أو تلوت القرآن: فليكن ذلك على سبيل مناجاتك له تعالى، وعلمه بك، ورؤيته لك.

ولأنّ المصلي يناجي ربه تعالى وهو قِبَله: نُهي أنْ يبزق أَمَامَهُ، قَالَ

---

(١) رواه البخاري (٤١٧)، ومسلم (٥٥١).
(٢) حياة السلف بين القول والعمل (ص٢٢١).

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّمَا يُنَاجِي رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قِبْلَتِهِ، فَلَا يَبْزُقَنَّ فِي قِبْلَتِهِ**». رواه البخاري(١).

ونُهي الرجل أنْ يمرّ بَيْنَ يَدَيه، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ، لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ**». متفق عليه(٢).

كلّ هذا احترامًا وإجلالًا لله تعالى الذي يُناجيه العبد في صلاته، ولو أنّ أحدنا ـ ولله المثل الأعلى ـ وقف أمام من يُحب ويُعظم من المخلوقين فجاء رجل ومرّ بينهما مع قربهما لعدّ ذلك سوء أدب، واستَحقّ اللوم، ولو بصقَ من يُخاطب مُعظّمًا أمامه لعدّ ذلك سوء أدب، واستَحقّ اللوم كذلك.

واستشعر وقوف الْمَلَك عن يمينك، قال النَّبِيّ ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَبْصُقْ أَمَامَهُ؛ فَإِنَّمَا يُنَاجِي اللهَ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا**». رواه البخاري(٣).

وإذا فعلت هذا فسوف يملأ الله تعالى قلبك أنسًا به، ومحبة له، ويقينًا به، وإقبالًا عليه.

واستشعر وأنت تنتظر الصلاة بعد الصلاة أنك مرابطٌ في سبيل الله، كما قال رَسُول اللهِ ﷺ في شأن إسْباغ الْوضُوءِ علَى الْمَكارِهِ، وكثْرة الْخُطا إلى الْمساجدِ، وانْتظار الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ: «**فذلِكُمُ الرِّباطُ، فذلِكُمُ الرِّباطُ**»(٤).

---

(١) (٤١٣).
(٢) البخاري (٥١٠)، ومسلم (٥٠٧).
(٣) (٤١٦).
(٤) رواه مسلم (٢٥١).

«فإن الرباط ها هنا ملازمة المسجد لانتظار الصلاة، وذلك معروف في اللغة، قال صاحب العين: الرباط ملازمة الثغور، وملازمة الصلاة»(١).

«فإنَّ المرابطة عند العرب: العقدُ على الشيء حتى لا ينْحلّ، فيعود إلى ما كان صَبَرَ عنه، فيحبس القلبَ على النيَّة الحسنة، والجسمَ على فعل الطاعة.

ومن أعظمِها وأهمِّها:

١ ـ ارتباطُ الخيل في سبيل الله، كما نص عليه في التنزيل في قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

٢ ـ وارتباطُ النفس على الصلوات، كما قاله النبي ﷺ»(٢).

ولعل الله تعالى بكرمه وجوده يعطيه برباطه على جهاد النفس والعدوّ الشيطاني، ثوابَ المرابطين على جهاد العدوّ الإنسانيّ، الذي قال فيه رَسُول اللهِ ﷺ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**»(٣).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: فَقَدْ يَحْصُلُ لِمُنْتَظِرِ الصَّلَوَاتِ ذَلِكَ الْفَضْلُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. اهـ(٤).

نسأل الله من فضلِه.

ولا يكون الرجل مرابطًا إلا إذا كان متحرّيًا لها، فمن كان غافلًا غير مهتمّ لها، ولا مستعدّ لها، فإذا أقيمت الصلاة أو قربت الإقامة قام

(١) الاستذكار لابن عبد البر (٢/ ٣٠٣).
(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٤٨٩).
(٣) رواه مسلم (١٩١٣).
(٤) تفسير القرطبي (٥/ ٤٩١).

عجلًا همّه الفراغ منها: فليس داخلًا في الحديث والله أعلم؛ لأنه غير مرابط في الحقيقة، «وَسُمِّي الْمُرَابِطُ مُرَابِطًا؛ لِأَنَّ الْمُرَابِطِينَ يَرْبِطُونَ خُيُولَهُمْ يَنْتَظِرُونَ الْفَزَعَ، ثُمَّ قِيلَ لِكُلِّ مُنْتَظِرٍ قَدْ رَبَطَ نَفْسَهُ لِطَاعَةٍ يَنْتَظِرُهَا: مُرَابِطٌ»(١).

ولأنه ﷺ قال: «**وانْتظار الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ**»، وهذا يقتضي ترقب المسلم للصلاة وتحرّيه لها، واستعداده لها بالتَّبْكِير والخشوع.

فمعنى: انتظار الصلاة بعد الصلاة: «أن الإنسان إذا فرغ من هذه الصلاة يتشوق إلى الصلاة الأخرى، وهكذا يكون قلبه معلقًّا بالمساجد، كلما فرغ من صلاةٍ فهو ينتظر الصلاة الأخرى»(٢).

ولا يصل أحدٌ إلى هذه المرحلة إلا بعد أن يمتلئ قلبُه بالإيمان، ويصل إلى مرتبة الإحسان، ويشعّ قلبُه ويفيض بحبّ الرحمٰن.

قال أحدُ المعاصرين ممَّن أكرمه الله بالعناية بالصلاة والخشوع فيها: كنت في السابق أحضر بعد الأذان، ثم جاهدت نفسي على الحضور مع الأذان، ثم جاهدت نفسي على الحضور قبل الأذان، ثم قذف الله في قلبي حبّ الصلاة والتبكير إليها، والراحة بها، فجعلت أزيد في التَّبْكِير مع مرور الأيام إلى أن وصلت إلى نصف ساعة في كثير من الأحيان، فذقت طعم الإيمان ولا أزكي نفسي، فشعرت بسعادة لا يضاهيها سعادة، وجعلت أقول: إن كنت في الجنة كما أنا عليه الآن من السعادة والراحة والطمأنينة فأنا في عيش سعيد.

وقد وجدت في صلاتي لوحدي قبل الأذان لذة لا تُوصف، وها أنا

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/١٥٨).

(٢) شرح رياض الصالحين، للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٥/٢٢).

أصف لذتي بعد أنْ توضأت وتطيبت من أحسن الطيب عندي، فخرجت قبل الأذان بنصف ساعة لصلاة العصر، وجعلت أقول في طريقي: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾، ولما وصلت طيَّبت المسجد، ثم شرعت في صلاة ركعتين ذقت فيهما طعم الخشوع ـ وما أحسن طعمه ـ ولذة مناجاة الله ـ وما ألذها من لحظة ـ، ووالله إنّ الدنيا كلها بما فيها لا تُساوي عندي هاتين الركعتين، وجميع متعها وملذاتها لا تساوي لذتي في صلاتي. اهـ.

فهذا واحد من بين الآلاف الذين أقبلوا على الله فأقبل عليهم ﷻ.



٧ «مثل من ينقر الصلاة ومن يخشع فيها ويُقبل عليها»:

من ذاق طعم الصلاة والخشوع فيها فإنه لن يقنع بصلاةٍ يأتي فيها بأدنى الكمال في الأفعال والأقوال.

واللهُ تعالى يحب أن يُطيل المسلم في صلاته، ففِي «صحِيح مسلم»[١] أنّ رَسُول الله ﷺ سُئِلَ: أَي الصَّلَاة أفضل؟ فَقَالَ: طول الْقُنُوت.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلم يرد بِهِ طول الْقيام فَقَط؛ بل طول الْقيام وَالرُّكُوع وَالسُّجُود، كَمَا كَانَت صَلَاة النَّبِي ﷺ كَانَت معتدلة، إِذا أَطَالَ الْقيام أَطَالَ الرُّكُوع وَالسُّجُود. اهـ[٢].

وأقرب شبهٍ لحال من ينقر صلاته نقر الغراب، ويستعجل في ركوعها وسجودها وقيامها، ويأتي إليها متأخرًا ويخرج مبكرًا، وحال من يخشع فيها ويطمئن فيها، ويُقبل عليها بقلبه: من يجلس مع حبيب، ومن يجلس مع ثقيل.

فمن جلس مع محبوبٍ يستمع له بإصغاء وحماس: فإنه إذا حدّث حبيبه في قصة أو أمر ما فسيتكلم معه بشغفٍ وحماس، وسيفصّل في حديثِه، وسيتفاعل أثناء سردِه للحدث والقصة، ولن يدع شيئًا في نفسه إلا قاله له؛ لأنه يشعر بالفرح وهو يبثُّ لحبيبه همومه، ويشعر بالقرب من حبيبه؛ لأنه يرى حماسه تجاه ما يقول.

ومن جلس مع ثقيل: فإنه إذا حدّثه فلن يتكلم معه بشغف

---

(١) (٧٥٦).
(٢) جامع الرسائل (١/ ٥).

وحماس، ولن يفصل في الكلام؛ بل سيعطيه الزبدة والخلاصة، ولن يتفاعل مع الحدث والقصة، ولن يشعر بالفرح ولا بالنشاط أثناء حديثه؛ لأنه لا يشعر بالقرب من الذي يحدّثه، فهو لا يرى حماسه تجاه ما يقول.

فالأول: يطلب الأنس والراحة في حديثه وجلوسه مع حبيبه.

والثاني: يطلب الخلاص منه، ويحدّثه على عجل.

وهكذا حال المصلي في صلاتِه.

فالأول: يطلب الأنس والراحة في صلاته؛ لأنه يشعر بالحب الشديد لله، ويستشعر عظمته وهو واقف أمامه وبين يديه، وكأنه يراه، فيتلذّذ بطول الوقوف بين يديه، ويأتي بجميع الأذكار الواردة أو أغلبها ولا يأتي بطرفها، ويشعر بالعزة وهو يُناجي الخالق العلي الأعلى تبارك وتعالى، ويشعر بالسعادة والسكون والخشوع والطمأنينة وهو يُوقن أن ربه الرؤوف الرحيم يستمع له ويراه.

وأما الثاني: فإنه يطلب الخلاص منها، وإذا صلى نقرها نقر الغراب، وصلاها على عجل؛ لأنه لا يشعر في صلاته بقرب الله منه، ولا يستشعر عظمته وهو واقف أمامه وبين يديه، وإذا قرأ، أو دعا، أو ذكر الله تعالى، فإنما يسردُ سردًا لا روح فيه ولا حماس، فأصبحت صلواتُه أشبه ما تكون بعاداتٍ اعتادها ونشأ عليها، فلذا تجده يتململ من طول الوقوف بين يديه، ولا يأتي بكامل الأذكار والأدعية الواردة، وإنما يأتي بجزْءٍ منها عجلًا كأنه على جمر، ويحفظ سورًا يرددها منذ عقل، ولا يشعر بالعزة وهو يُناجي ربّه، ولا بالسعادة والسكون والخشوع والطمأنينة، وإنما عزفت عنه هذه المعاني العظيمة الشريفة؛ لأنه عزف

عن مقصود الصلاة وروحها وغايتها، والجزاء من جنس العمل.

ويُخشى على هذا ألا يَقبل الله تعالى منه صلاته؛ لأنه لم يتق الله فيها، والله تعالى إنما يتقبل من المتقين، ولأنّها أشبه بصلاة المنافقين، الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ صَلَاةَ الْمُنَافِقِينَ، وَبَيَّنَهَا رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَنْ صَلَّى كَصَلَاتِهِمْ وَذَكَرَ كَذِكْرِهِمْ لَحِقَ بِهِمْ فِي عَدَمِ الْقَبُولِ، وَخَرَجَ مِنْ مُقْتَضَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ عُذْرٌ. اهـ[1].



(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٩٢).

٨ «بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»:

إذا أردت أن تذوق طعم الخشوع في الصلاة: فتأمل في سورة الفاتحة كلما وقفت في الصلاة، وتلمس أسرارها؛ فإنها قد حوت ما لا يُحصى من المعاني السامية، والأسرار البديعة، التي لا يكاد يوجد مثلها في باقي السّور، وصدق العلامة القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: فِي الْفَاتِحَةِ مِنَ الصِّفَاتِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهَا، حَتَّى قِيلَ: إِنَّ جَمِيعَ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَهِيَ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ كَلِمَةً تَضَمَّنَتْ جَمِيعَ عُلُومِ الْقُرْآنِ. اهـ[١].

والمقصود من جميع العلوم:

١ ـ إما معرفة عزة الْمَعبود.

٢ ـ أو معرفة ذلة العبد.

فقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ يدل على أنه هو الإله المستولي على كلِّ أحوال الدنيا والآخرة.

ثم مِن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ إلى آخر السورة يدل على ذلِّ العبد، فإنه يدل على أن العبد لا يتم له شيء من الأعمال الظاهرة والباطنة إلا بإعانةِ الله تعالى وهدايته.

وإذا قلت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لاحت لك جميع النعم الدينية والدنيوية التي تتقلب فيها، فتنطق بالحمد من أعماق القلب.

وإذا قلت: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ استشعرتَ عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه

(١) تفسير القرطبي (١/ ١٧١).

رب الكون كلّه، بما يحويه من سماوات عظام، وكواكب لا يُحصى عددها، ولا يُحاط حجمها.

وإذا تأملتَ معاني (الرب) في اللغة شعرتَ بالقرب والصلة بينك وبين ربك تعالى، وذلك حينما تناديه بهذا الاسم، وحينما تقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

فمن معاني «الرَّبّ:

١ ـ الْمَالِكُ، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾؛ أَيْ: مَالِكُهُمْ، وَكُلُّ مَنْ مَلَكَ شَيْئًا فَهُوَ رَبُّهُ.

٢ ـ السَّيِّدُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، وَفِي الْحَدِيثِ: (أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا)؛ أَيْ: سَيِّدَتَهَا.

٣ ـ الْمُصْلِحُ وَالْمُدَبِّرُ وَالْجَابِرُ وَالْقَائِمُ.. وَمِنْهُ سُمِّيَ الرَّبَّانِيُّونَ لِقِيَامِهِمْ بِالْكُتُبِ، وَفِي الْحَدِيثِ: (هَلْ لَكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيْهِ)؛ أَيْ: تَقُومُ بِهَا وَتُصْلِحُهَا.

٤ ـ الْمَعْبُودُ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ هَذَا الِاسْمَ هُوَ اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ، لِكَثْرَةِ دَعْوَةِ الدَّاعِينَ بِهِ.. وَلِمَا يُشْعِرُ به هذا الوصف من الصلة بَيْنَ الرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ، مَعَ مَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْعَطْفِ وَالرَّحْمَةِ وَالِافْتِقَارِ فِي كُلِّ حَالٍ»(١).

فإذا قلت في صلاتك وغيرها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ أو دعوت بهذا الاسم العظيم فاستحضر هذه المعاني، فكأنك تقول: يا

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢١١).

من رباني، ويا مدبر أموري، ويا مصلح شؤوني، ويا مالك نفسي، ويا جابري والقائم علي، ويا إلاهي الذي لا أعبد غيرك.

وإذا قلتَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ جاءك شعورٌ بالأمان النفسي، فيعظم رجاؤك، فالله تعالى لم يفرض علينا سورة الفاتحة في كل صلاة وفيها هذان الاسمان الكريمان، إلا من محبة الله تعالى للرحمة، وهذا يزيدك رجاءً وحبًّا وتعلقًا به تعالى وبرحمته وجنته.

وإذا قلت: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ جاءك شعور بالخوف من هول ذلك اليوم، وتذكرتَ قوله تعالى وقد أفنى الخلائق: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ فيجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝٤٨﴾.

فتزداد خوفًا ورهبةً من هذا اليوم العصيب، الذي لا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعواهم يومئذ ـ وهم أكرم الخلق على الله ـ: اللَّهُمَّ سلم سلم.

ومن أعظم آياتها بلاغة وقوة وتأثيرًا على المؤمن الخاشع قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، حتى قال الرازي في تفسيره عنها[1]: المسائل التي اشتملت هذه الآية عليها كالبحر المحيط الذي لا تصل العقول والأفكار إلا إلى القليل منها. اهـ.

فقد قدم ذكر نفسه ليتنبه العابد على أنَّ المعبود هو الله الحق، فلا يتكاسل في التعظيم، ولا يلتفت يمينًا وشمالًا.

ومتى ثقلت عليك الطاعات وصعبت عليك العبادات من القيام والركوع والسجود: فاذكر أولًا قوله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لتذكره وتُحْضِر في

(١) (١/٤).

قلبك معرفته، فإذا ذكرت جلاله وعظمته وعزته وعلمتَ أنه مولاك، وأنك عبده سهلت عليك تلك العبادات(١).

فكم يتقلب قلب المؤمن بين عبادات عظيمة في هذه السورة القصيرة، وليس في القرآن سورة ولو طالت تحوي ما تحويه هذه السورة العظيمة.

فقلب المؤمن الذي يقرؤها بتدبر وتأمل يمرّ بأحوال إيمانية كثيرة، **منها**:

١ ـ الثناء على الله وحمده وشكره بصدق.

٢ ـ الاعتراف بذل العبودية والفقر والحاجة للرَّبِّ سبحانه القائم عليه، الذي لا صلاح له بدونه.

٣ ـ الشعور بعظمة خالق الكون والعالمين، ومدبّر شؤون الخلائق أجمعين، الذي تكفّل وحده بذلك، فما أعظمه من إلٰهٍ قائم على هذا الكون الواسع الكبير.

٤ ـ فتح باب الأمل والرجاء مع اسْمَيْ الرحمٰن الرحيم، الذي يصحب ذلك الحبّ العظيم للراحم الرحيم.

٥ ـ فتح باب الخوف والخشية من الله تعالى، الذي أعدّ يومًا تشيب منه رؤوس الولدان، ويفزع منه الأنبياء والرسل والملائكة عليهم السلام، ويستشعر العبدُ ذلك اليوم العظيم، فيخاف من ذنوبه وتقصيره، ويدفعه هذا إلى التوبة والاستغفار، والالتجاء إلى جانب العزيز الغفار.

٦ ـ شعورُه بالعزة حينما يقرأ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛

(١) تفسير الرازي (١/ ١٥٠).

لأنه لا يعبد ولا يذل ولا يخضع لغير القوي الجبار القهار، والخادم يشعر بالفخر إذا كان الخادمَ الخاصَّ لملِكٍ من ملوك الدنيا، فكيف بمن يعبد ـ ولا أقول يخدم ـ ويخضع لملك الملوك جَلَّ جَلالُه، وهذا يدفعه إلى احتقار الدنيا وأهلها، وعدم اكتراثه بأملاك الدنيا وأهل الأموال والمناصب.

٧ ـ زيادةُ الإخلاص في أعماله وأقواله وأحواله لله تعالى.

٨ ـ شعوره بالعجز والحاجة إلى عونه وتوفيقه في كل أموره، وخاصة شؤون العبودية والطاعة، وهذا يدفعه إلى الثقة الكبيرة بالله، فإنه أخبرنا أنه من توكل عليه فهو حسبه وكافيه ومُعينه.

٩ ـ شعوره القوي بالحاجة إلى العلم والعمل به؛ لأنّ الصراط المستقيم لا يُمكن سلوكه بغيرهما.

١٠ ـ شعوره بأنّ شريعة الله ودينه هو الصراط المستقيم، الذي لا طريق للاستقامة بغيرِه، وهذا يجعله يشعر بالأمان من الانحرافات ما دام سالكًا صراط الله المستقيم، ويدفعه إلى المزيد من العمل والثبات وطلب الهدى والاستقامة.

١١ ـ تلوح له أسماء بعض الأنبياء والأولياء والعلماء الأجلاء، الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم وأوقاتهم في سبيل الله تعالى، فيزداد همة في سلوك سبيلهم، والسير على منهاجهم، ويزداد شوقه إلى لقاء هؤلاء وغيرهم الذين هم على الصراط المستقيم، الذي أنعم الله تعالى عليه بسلوكه، وأنعم عليهم بسلوكه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وهذا يدفعه إلى عدم الوحشة من مخالفة الناس إذا كان قد سلك صراط هؤلاء الأولياء الأتقياء.

١٢ ـ شعوره بأنَّ الهداية نعمة من الله تعالى، لا تُنال بالقوة

والذكاء والحفظ والعلم؛ بل بالصدق والإخلاص والمتابعة، وهذا يُخرج من قلبه العجب والكبر ورؤية المنّة.

١٣ ـ خوفه على نفسه من سلوك صراط المغضوب عليهم وهم اليهود، الذين لم يعملوا بما علموا، ومن سار على نهجهم، وصراط الضالين وهم النصارى، الذين عبدوا الله بلا علم، ومن سار على نهجهم، وهذا يدفعه إلى الخوف على نفسه من الغواية والضلال، واللذين سببهما الجهل وفساد النيّة والقصد.

فكم في سورة الفاتحةِ من أسرار لا يُمكن الإحاطةُ بها، ومعانٍ عظيمةٍ لا حصر لها.



٩ «اللذة في التَّبْكِير للصلاة»:

إنّ الوصول إلى جنّةِ السعادة الدنيويّة بالأنس بالله وحبّه والفرح به: تحتاج إلى مجاهدة وصبر ومصابرة في ذات الله، ففي البداية يجاهد المؤمن نفسه فيحضر بعد الأذان مباشرة، ثم يجاهد نفسه على الحضور مع الأذان، ثم يجاهد نفسه على الحضور قبل الأذان، فإذا صبر وثبت وعلم الله تعالى صدقه: قذف في قلبه حبَّ الصلاة والرغبةَ في التبكير إليها، والراحة بها، فيزيد في التَّبْكِير مع مرور الأيام؛ رغبةً وحبًّا وشوقًا لبيت الله تعالى، والوقوف بين يديه ﷻ.

قال أحد طلاب العلم المعاصرين: كنت إذا سافرت ثم رجعتُ قبل صلاة العصر أو العشاء، جمعتُ قبل أنْ أصل إلى بلدي بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، والغالب عليّ أني لا أطمئن في صلاتي كما ينبغي؛ نظرًا للتعب والإرهاق، والشوق لبلدي وأهلي.

وبعد أنْ منّ الله تعالى عليّ وفتح لي باب الخشوع في الصلاة، وذقتُ طعمها، وعرفتُ حقيقتها: سافرتُ يومًا، فلمّا رجعت قبل صلاة العصر بساعةٍ هَمَمْتُ بالجمع كعادتي، فتذكَّرْتُ أُنْسِي في الخشوعِ بالصلاة، ولذّتي في التَّبْكير إليها، وحلاوتي عند الاستعداد لها، حتى خَنَقَتْني الْعَبْرة، فأخّرْتُ الصلاة إلى أنْ وصلت إلى بلدي، فذهبت واغتسلت وتطيَّبت، ثم صلّيت الظهر تامّة مع السنن الراتبة، وذهبتُ لصلاة العصر مبكرًا متطيّبًا، ولا يعلم مدى سعادتي حينها إلا الله تبارك وتعالى. اهـ.

«وأين يذهب المحبون عن بيوت مولاهم؟! قلوب المحبين ببيوت

محبوبهم متعلّقة، وأقدام العابدين إلى بيوت معبودهم مترددة»(١).

ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عبارة لا ينبغي أن تغيب عنك، وهي قوله: إنَّ السَّالِكَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ يَجِدُ تَعَبَ التَّكَالِيفِ، وَمَشَقَّةَ الْعَمَلِ؛ لِعَدَمِ أُنْسِ قَلْبِهِ بِمَعْبُودِهِ، فَإِذَا حَصَلَ لِلْقَلْبِ رُوحُ الْأُنْسِ زَالَتْ عَنْهُ تِلْكَ التَّكَالِيفُ وَالْمَشَاقُّ، فَصَارَتْ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ، وَقُوَّةً وَلَذَّةً.

فَتَصِيرُ الصَّلَاةُ قُرَّةَ عَيْنِهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عِبْئًا عَلَيْهِ، وَيَسْتَرِيحُ بِهَا، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَطْلُبُ الرَّاحَةَ مِنْهَا، فَلَهُ مِيرَاثٌ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «**يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا**»(٢)، «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٣) بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَأُنْسِهِ بِاللهِ ﷻ، وَوَحْشَتِهِ مِمَّا سِوَاهُ. اهـ(٤).

فلتكنْ همتك أنْ تحضر إلى الصلاة شوقًا ورغبةً ومحبة، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا يَسُوقُ ـ أي: المؤمن ـ نَفْسَهُ إِلَى اللهِ كَرْهًا؛ كَالْأَجِيرِ الْمُسَخَّرِ الْمُكَلَّفِ؛ بل تَكُونُ دَوَاعِي قَلْبِهِ وَجَوَاذِبُهُ مُنْسَاقَةً إِلَى اللهِ طَوْعًا وَمَحَبَّةً وَإِيثَارًا؛ كَجَرَيَانِ الْمَاءِ فِي مُنْحَدَرِهِ، وَهَذِهِ حَالُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ؛ فَإِنَّ عِبَادَتَهُمْ طَوْعًا وَمَحَبَّةً وَرِضًا، فَفِيهَا قُرَّةُ عُيُونِهِمْ، وَسُرُورُ قُلُوبِهِمْ، وَلَذَّةُ أَرْوَاحِهِمْ، فَقُرَّةُ عَيْنِ الْمُحِبِّ وَلَذَّتُهُ وَنَعِيمُ رُوحِهِ فِي طَاعَةِ مَحْبُوبِهِ، بِخِلَافِ الْمُطِيعِ كَرْهًا، الْمُتَحَمِّلِ لِلْخِدْمَةِ ثِقَلًا. اهـ(٥).

فمن يخشع في صلاته، ويبكر لها، وهو يستشعر حبَّه لله، وانقياده

---

(١) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص٧٣).
(٢) رواه الإمام أحمد (٢٣٠٨٨)، وأبو داود (٤٩٨٥) واللفظ له، وصححه الألباني.
(٣) رواه الإمام أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي (٣٩٣٩)، وصححه الألباني.
(٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٣٥٤).
(٥) المصدر السابق (٢/ ١٠٢).

التامَّ له، ومناجاته له، ونظر ربّه إليه، وإيثارَ مرضاته في التَّبْكِير إلى لقائه، على مرضاة نفسه، التي تهوى الخلود إلى الراحة والدَّعة: أفضل وأكمل ممن يفعل ذلك طلبًا للأجر وخوفًا من الوزر.

وبهذا تعلم أنّ استحضارَ المؤمن المعنى السابق: أحسنُ من استحضاره وهو في صلاته أنّ الجنة على يمينه والنار على يساره؛ كما ورد عن بعض السلف.



١٠ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾:

وعدٌ صادق من الكريم الوهَّاب: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.

فمن جاهد نفسه لله في قيام الليل هداه للقيام وأعانه وشرح صدره وأذاقه لذة قيام الليل التي هي أحلى من كل متع الدنيا.

ومن جاهد نفسه لله في طلب العلم والرسوخ فيه بلغه الله المنازل الرفيعة في العلم.

ومن جاهد نفسه لله في بذله للعلم ونشره بارك الله له في علمه، وهداه للسبيل الأقوم لنشره.

ومن جاهد نفسه لله في نزع الخوف من مقابلة الناس في إلقاء الكلمات وارتجال الخطب، واكتساب أحسن الأساليب المؤثرة في الدعوة إلى الله تعالى: هداه الله لذلك، وبلَّغه مراده، وجعله من أفصح الناس، وأقواهم تأثيرًا، وأجرؤهم في تبليغ دينه، وأشرحهم صدرًا لذلك، وأذاقه لذة نشر العلم، التي لو ذاقها الناس لَمَا فرّطوا فيها.

ومن جاهد نفسه لله في التخلق بالأخلاق الحسنة والتخلص من الطباع السيئة: هداه الله لأحسن وأتم وأكمل الأخلاق، وخلّصه من رديئها.

ومن جاهد نفسه لله في ترك ذنوب ابتُلي بها، وفتنٍ غرق بها: هداه الله للتخلص منها، وسهّل عليه فراقها وتركها.

ومن جاهد نفسه لله في الرضا بقضائه وقدره، والمصائب المتتالية عليه، من قِبل السحرة أو الظلمة، أو الأمراض الحسية والمعنوية: هداه الله لأحسن وأتم وأكمل الإيمان، والرضا به وعنه، وفتح له أبواب الهدايات الإيمانية، التي قد لا تُفتح إلا في مثل هذه الحالات العصيبة.

فما بينك وبين هداية الله لك لسُبله ونيلِ كراماته إلا مجاهدة نفسك في الله.

ومتى لم تر زيادةً واضحةً مستمرّة في همّتك وعملك وعلمك وإيمانك: فاعلم أنّه من ضعفِ مجاهدتك، والإنسان إن لم يتقدم تأخر ولا بدّ؛ لأنّ الله تعالى وعد بقوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي: لنزيدنهم هداية إلى سبل الخير، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾.

قال بعض السلف: إنّ الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم.

والله تعالى أطلق المجاهدة ولم يقيّدها بمفعول؛ ليتناول كلّ ما تجب أو تستحبّ مجاهدته، من النفس الأمّارة بالسوء، والشيطان، وأعداء الدين، والهوى.

والله تعالى وعد بهداية سبيله لمن تحققت فيه صفتان:

الأولى: المجاهدة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾.

ولا يسمى العمل جهادًا إلا بثلاثة شروط:

١ ـ أن يصبر.

٢ ـ وأن يُصابر.

٣ ـ وأن يُرابط على الأمر الذي يطلبه.

كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

فأمر المؤمنين بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه، بحبسها عن شهواتها.

وبالمصابرة، وهي حاله في الصبر مع عَدُوِّه.

وبالمرابطة، وهي الثبات وإعْدَادُ العُدّةِ واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة.

فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبُّد بالتقوى، فأخبر سبحانه أنّ ملاك ذلك كله التقوى، وأنَّ الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يُخاف هجوم العدو منه في الظاهر، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن مملكته.

فلا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة[1].

قال بعض السلف: فتحُ كلِّ بابٍ شريفٍ بذلُ المجهود[2].

وإنك تجد من بلغ ما بلغ من العلم أو المنصب أو الغنى إنما

---

(١) يُنظر: الجواب الكافي (ص٩٧)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص٢١)، لابن القيم رحمه الله.

(٢) الزهد للبيهقي (٢٩٣).

كان ـ في الغالب ـ بسبب الجد والنشاط والعزم، لا بفرط ذكائه، ودقّةِ فهمه، وقوة بدنه.

وقد صدق القائل(١):

لَا تَشْرَهَنَّ إِلَى دُنْيَا تَمَلَّكَهَا ... قَوْمٌ كَثِيرٌ بِلَا عَقْلٍ وَلَا أَدَبِ
وَلَا تَقُلْ إِنَّنِي أَبْصَرْتُ مَا جَهِلُوا ... مِنَ الْإِدَارَةِ فِي مُرٍّ وَمُنْقَلَبِ
فَبِالْجُدُودِ هُمُ نَالُوا الَّذِي مَلَكُوا ... لَا بِالْعُقُولِ وَلَا بِالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ
وَأَيْسَرُ الْجَدِّ يَجْزِي كُلَّ مُمْتَنِعٍ ... عَلَى التَّمَكُّنِ عند الْبَغْيِ وَالطَّلَبِ

«فمن صبر عَلَى مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه: غلب وحصل له النصر، ومن جزع ولم يصبر عَلَى مجاهدة ذلك: غُلب وقُهر وأُسر، وصار ذليلًا أسيرًا في يدي شيطانه وهواه»(٢).

فإذا لم تغلب هواك أذللت نفسك، وإن كنت عزيزًا.

كما قيل:

إذا المرءُ لم يغلبْ هواه أقامه ... بمنزلةٍ فيها العزيز ذليلُ

والثانية: الإخلاص لله تعالى، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فِينَا﴾؛ أي: في سبيلنا ولأجلنا.

وبعض الناس يتعب ويجاهد في أعمال صالحة ولكنه لا يحتسبها لله، فتضيع تلك المجاهدات، ولا يُعان على ما طلب، كحال بعض الآباء والأمهات، الذين يربون أولادهم، ويصبرون على تعليمهم وتنشئتهم وتهذيب أخلاقهم، ولكنهم لا يخلصون في ذلك لله، ولا ينوون

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٣/ ٨٤).
(٢) مجموع رسائل ابن رجب (٣/ ١٥٨).

من تربيتهم وجهادهم إلا الدنيا، بأن يكونوا مجتهدين في دراستهم، ويفخرون بهم أمام الناس، فهؤلاء قد خسروا خسارة عظيمة؛ حيث خسروا الأجر والثواب من الله تعالى على تلك الأتعاب التي تعبوها في تربيتهم.

فمعنى (جاهدوا فينا) أن يكون العمل كله لله خالصًا، وإلَّا فما الفَرْق بين المؤمن والكافر، فكلاهما يعمل ويسعى في الدنيا لكسب لقمة العيش له ولأولاده، فهما في السعي سواء، فما مزية المؤمن إذن؟

الميزة أنَّ الكافر يعمل لأجل نفسه وراحتها، والمؤمن يعمل لأجل الله واتباعًا لشرعه.

فالذين يعملون في إطار ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ لا يغيب الله تعالى أبدًا عن بالهم.

فمن أخلص لله في نيل أمر من الأمور وصبر وصابر: أوصله الله إلى ما يريد، ولا بد من شرط ثالث ليتم للعمل القبول عند الله، وهو المتابعة.

فمن فعل ذلك هداه الله إلى سبل الخير والبر، وكان معه يسدده ويحوطه ويدفع عنه، ولذلك قال بعد ذلك: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ إشارة إلى المعية الخاصة، التي تكون للمحسن زيادة على حسناته.

وبعض الناس إذا سمع الترغيب في قيام الليل، أو صيام النفل، أو طلب العلم، أو الجهاد ـ بضوابطه وشروطه ـ، أو الدعوة إلى الله تعالى ونشر العلم، قال: هذه فتوحات، وكلٌّ قد فتَح الله تعالى عليه في مجال!

فهذا صحيح، ولكن لا بدّ أيضًا أنْ نسأل أنفسنا بصدق: وأين المجاهدات؟ وأين الصبر على الطاعات ولو كرهت النفس؟

وهي فتوحات، ولكنها تُنال بعد طول مجاهدة وصبر، ولو أننا لم نقم بالنوافل إلا إذا انشرحت لها صدورنا لأغلقنا على أنفسنا أبواب الخير والبرّ، وهل تُنال الكرامات والدرجات إلا بمخالفة النفس والهوى؟

فلا بدّ أن نجاهد أنفسنا في إلْزامِها على القيام بالطاعات المختلفة، وإذا فعلنا ذلك فُتحت علينا جميع العبادات، وذُلّلت لنا، وسهلت علينا.

وكما أنّ من جاهد في الله تعالى وصبر لأجله هداه في الدنيا سبل الخير، فكذلك يهديه الله ويعينه على عبور الصِّرَاط المضروب على نار جَهَنَّمَ، وقد قال النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كلامه عن جسر جهنم وسلوك الناس له: «ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: يَا رَبِّ! سَلِّمْ.. سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلا زَحْفًا، وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلالِيبُ مُعَلَّقَةٌ، مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْردسٌ فِي النَّارِ»(١).

فقوله: «تجري بهم أعمالهم»؛ يعني: أنَّ سُرْعة مَرّهم على الصراط بقدر أعمالهم، فكأن عمل الإنسان هو الذي يجري به، فإنْ كان عمِل عملًا قليلًا جرى به ببطء، وإن كان عمِل عملًا كثيرًا خالصًا صالحًا: جرى به بسرعة.

---

(١) رواه مسلم (١٩٥).

فينبغي لكلّ مؤمن أن يملأ حياته بالأعمال الصالحة، والخير، والبر.

وإنَّ من أشد الحسرات أنْ يمر المسلم على الصراط زحفًا، ويرى من يمرون بين يديه كالبرق، فيتحسَّر أشدّ الحسرة على تلك الحياة التي لم يعمل فيها لأجل هذا اليوم، ثم لا يدري هل ينجو أم تمسكه الكلاليب فتقذفه في النار؟

اللَّهُمَّ ارحمنا ونجنا من النار.



١١ «داوم على عبادات تقوم بها»:

ألزم نفسك ـ **أخي المسلم** ـ بالقيامِ بعبادات لا تتخلى عنها، وحدد زمنها ووقتها ومقدارها.

فمن ذلك الصلاة، فصلِّ في اليوم ثمانٍ وأربعين ركعة.

وهي كالتالي: الفرائض، وسنن الرواتب، وقيام الليل ـ وهو إحدى عشرة ركعة ـ، وركعتان بين الأذان والإقامة لكل صلاة، وركعتا الضحى.

وستجد في صلاتك من الراحة والسكينة والخشوع وتعظيم الله وحبّه ورجائه ما لا يُستطاع وصفه، ولو أُعطي الواصف من الفصاحة والبيان ما أُعطي.

وذلك لأن المصلي العابد الخاشع يُوقن يقينًا عظيمًا أنه يُناجي ربه وهو يسمعه ويراه، ويُخاطبه مخاطبة العبد بين يدي سيِّده المشفق عليه، وقد ضاقت به السبل، فلاذ بسيده، وسيده مقبل عليه بحنان وإشفاق وإكرام، فكيف يكون حاله؟ كيف سيكون أنسه وسعادته وفرحه بسيدِه الذي يسمع شكواه، ويعرف بلواه، وأحاطه بملائكةٍ كرام تحضر صلاته وتدعو له كلما دخل بيته؟

وألزم نفسك كذلك صيام ثلاثة أيام من كلّ شهر، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه حثّ على صيامها، ففي «الصحيحين»(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) البخاري (١١٧٨٩)، ومسلم (٧٢١).

قال: أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام».

وثبت في «صحيح مسلم»[١] أنه أوصى أبا الدرداء رضي الله عنه بذلك.

وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «صم من كل شهر ثلاثة أيام؛ فإن بكل حسنة عشر أمثالها، فذلك صوم الدهر»[٢].

فانظر إلى كثرة ما أوصى نبينا ﷺ أصحابه بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، فلا ينبغي لنا أن نقصرّ في العمل بما أوصى به ﷺ.

وألزم نفسك كذلك قراءة نصف جزء في قيام الليل، وقراءة جزءٍ في غير قيام الليل، وإن زدت فهو أفضل.

والتزامُك بمقدارٍ محددٍ في العبادات له ثمراتٌ كثيرةٌ منها ما يلي:

١ ـ الزيادةُ في الإقبال على الطاعات، حيث ستزيد من مقدارها مع مرور الأيام رغبةً وحبًّا، لا تكلّفًا وإكراهًا، وهذا من ثمار الصبر على الطاعات، والإقبال على الكريم الوهاب جل جلاله.

٢ ـ سهولة القيام بها واعتيادها، حتى تصبح كالطعام والشراب لا تستطيع أنْ تتخلى عنها، ولا تفوت وقته، وقد يكون الأمر صعبًا في بداية الأمر، وربما تقصر عن وردك في قيام الليل وقراءة القرآن، ولكنْ بعد ذلك لا تكاد تفوت شيئًا منه بمشيئة الله.

فلذلك، أحثّ نفسي وكلّ مسلم بأن يلزم نفسه مقدارًا ـ ولو قليلًا ـ من العبادات لا يتخلى عنها إلا عند الضرورة.

(١) (٧٢٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (١١٥٩).

واعلم أنَّ النفس متى عودتها على النشاط والقوة والعزيمة تربت على ذلك، ومتى عودتها على الكسل والخوف وترك الشيء النافع لهوى النفس: ازدادت كسلًا وضعفًا وجبنًا، ويُصبح صاحبها ضعيف الهمة، رديء العزيمة.



١٢ «إقامة الصلاة وقراءة القرآن بتدبرهما أعظم مصدرَيْ الهداية والإيمان وجميع الأحوال الَّتِي بهَا حَيَاةُ الْقلب وكمالُه»:

الصلاة هي عمود الإسلام، وهي الصلة بين العبد وربه، وهي أول ما يُحاسب عنها العبد، والمصلي يناجي ربه، وهي أعظم وأقوى أسباب سعادة المسلم ولذّته وقوةِ إيمانه ويقينه ورجائه وحبّه لربه وإقباله عليه، وتوكله عليه، وخشوعه وخضوعه، والقرب منه، وهي أقرب وسيلة للزهد في الدنيا، واستحضار عظمة الله، وشوق القلب إلى جنته، وخوفه من ناره وسطوتِه.

فمن لم تقرّ عينُه في كلّ صلواتِه بها، ولم يجد فيها غاية الراحة والطمأنينة والخشوع والسكينة والسعادة وانشراح الصدر، ولم يمتلئ قلبه فيها بحبّه ورجائه والتوكل عليه والخوف منه: فليراجع علاقته بربه، وصدقه معه.

واعلم أنّ كلّ آلةٍ مصنوعة لا بد أن تُعرض على صانعها بين الحين والآخر ليتفقدها ويفحصها، ويزيل ما فسد منها، ويُمدّها بما يصلحها ويُطيل أمدها، ونحن نعرض قلوبنا في اليوم خمس مرات على الأقل على ربّنا وخالقنا؛ ليصلح ما فيها من فساد وأمراض، ويُمدها بالإيمان والسعادة، ويملأها بتحقيق المحبة، والرجاء، والتوكل، والخوف، والخشية، والإنابة، وغيرها من المعاني الإيمانية، التي لولاها لفسد القلب فسادًا لا يُرجى بُرؤه.

فلا يمكن لقلبٍ أن يمرض ويصدأ ويخرب، وصاحبُه يعرِضُه على خالقه وصانعه في اليوم خمس مرات، فيغذيه، ويزكّيه، ويطهّره.

ومن صلى وهو غافل، وشارد الذهن، ولم يتمعن في الصلاة وما يقول فيها: لم يعرض قلبه على ربه ليصلحه، فأنى لقلبه أن يصلح ويطهر؟

ولقد كانت الصلاة مفزعًا لأهل الإيمان وراحتهم، وقرةَ عيونهم، ولذلك كانوا يصلون في اليوم ساعاتٍ طويلةً ليلا ونهارًا، ولا يحبون أنْ ينقطعوا عنها إلا لِمَا لا بدّ لهم منه، ولا يكاد أحدهم يفكر بشيء من الدنيا تعظيمًا لله، كما قال مُجَاهِد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ الْعُلَمَاءُ إِذَا قَامَ أَحَدُهُمْ إِلَى صَلَاتِهِ خَافَ الرَّحْمَنَ عَجَلَّ أَنْ يَشُدَّ بَصَرَهُ إِلَى شَيْءٍ، أَوْ يَلْتَفِتُ، أَوْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمَرِ الدُّنْيَا إِلَا نَاسِيًا حَتَّى يَنْصَرِفَ».

ومن أعظم وأقوى أسباب سعادة المسلم ولذّته وصلاح قلبه كذلك: قراءة القرآن بتدبر.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: من أعظم ما تحصل به محبة الله تعالى من النوافل: تلاوة القرآن، وخصوصًا مع التدبر.اهـ[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا شَيْء أَنْفَع للقلب من قِرَاءَة الْقُرْآن بالتَّدَبُّر والتفكُّر؛ فَإِنَّهُ جَامعٌ لجَمِيع منَازِل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وَهُوَ الَّذِي يُورث الْمحبَّة، والشوق، وَالْخَوْف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، وَالرِّضَا، والتفويض، وَالشُّكْر، وَالصَّبْر، وَسَائِرَ الأحوال الَّتِي بهَا حَيَاةُ الْقلب وكمالُه.

وَكَذَلِكَ يزْجر عَن جَمِيع الصِّفَات والأفعال المذمومة الَّتِي بهَا فَسَاد الْقلب وهلاكه.

---

(١) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص١٣٠).

فَلَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر لاشتغلوا بهَا عَن كلِّ مَا سواهَا». اهـ(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ ثَوَابَ قِرَاءَةِ التَّرْتِيلِ وَالتَّدَبُّرِ أَجَلُّ وَأَرْفَعُ قَدرًا، وَثَوَابَ كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ أَكْثَرُ عَدَدًا.

فَالْأَوَّلُ: كَمَنْ تَصَدَّقَ بِجَوْهَرَةٍ عَظِيمَةٍ، أَوْ أَعْتَقَ عَبْدًا قِيمَتُهُ نَفِيسَةٌ جِدًّا.

وَالثَّانِي: كَمَنْ تَصَدَّقَ بِعَدَدٍ كَثِيرٍ مِنَ الدَّرَاهِمِ، أَوْ أَعْتَقَ عَدَدًا مِنَ الْعَبِيدِ قِيمَتُهُمْ رَخِيصَةٌ. اهـ(٢).

وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: من جهل معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمر به الله تعالى ورسولُه ﷺ؛ فإنه يحتوي على جميع الفضائل. اهـ(٣).

وقد صح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ: مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنُ؛ فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ(٤).

«أي: لِيُنَقِّر عنه ويُفكّر فِي مَعَانِيهِ وَتَفْسِيرِهِ وَقِرَاءَتِهِ»(٥).

وصدق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال:

فتدبر القرآن إنْ رمت الهدى ... فالعلم تحت تدبر القرآن

قال الوزير ابن هبيرة رَحِمَهُ اللَّهُ: من مكايد الشيطان: تنفيره عباد الله من

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٣/ ٥٥٣).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٣٢٨).

(٣) رسائل ابن حزم (١/ ٤٠١).

(٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٦٥): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِأَسَانِيدَ، وَرِجَالُ أَحَدِهَا رِجَالُ الصَّحِيحِ.

(٥) النهاية لابن الأثير (١/ ٢٢٩)، وأصله مِنْ ثَارَ الشَّيْءُ يَثُور إِذَا انْتَشَر وارْتَفع.

تدبر القرآن؛ لعلَّةِ أنَّ الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعًا.اهـ(١).

وفي هذا بيان خطأ من حصر تدبر القرآن على أهل العلم؛ بل تدبر القرآن واجب على كل مسلم، وأما الاستنباط فهو خاص بأهل العلم.

وقد نصّ بعض العلماء ـ كالزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ على كراهةِ قراءةِ القرآن بلا تدبر(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾؛ يعني: أي: سهلّناه للفهم والاتعاظ(٣).

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْيُسْرُ: السُّهُولَةُ، وَعَدَمُ الْكُلْفَةِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ مِنْ شَيْءٍ.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٥٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٥٥).

وذهب بعض أهل العلم إلى وجوب تدبر القرآن، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (٦/ ٤٧٧) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾: عَابَ الْمُنَافِقِينَ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ التَّدَبُّرِ فِي الْقُرْآنِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ وَفِي مَعَانِيهِ.

ودَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ عَلَى وُجُوبِ التَّدَبُّرِ فِي الْقُرْآنِ لِيُعْرَفَ مَعْنَاهُ.اهـ.

فإذا أُمر المنافقون بتدبر القرآن، فالمسلمون أولى وأحرى.

(٣) يستدل بعض الناس بهذه الآية على تسهيل الله تعالى لحفظ القرآن، وهذا ليس هو معنى الآية بالمنطوق والدلالة الأولية؛ بل يُفهم منه أنه سهل للحفظ، كما هو سهل للفهم، فهناك تلازم بين الأمرين، فالكلام الذي يسهل فهمه يسهل حفظه في الغالب.

فالله تعالى سهّل ألفاظه ومعانيه، وإذا سهلت الألفاظ والمعاني سهل حفظه لكلّ أحد.

وَالذِّكْرُ: مَصْدَرُ ذَكَرَ الَّذِي هُوَ التَّذَكُّرُ الْعَقْلِيُّ لَا اللِّسَانِيُّ، فَالذِّكْرُ هُوَ تَذْكُّرُ مَا فِي تَذَكُّرِهِ نَفَعٌ وَدَفْعُ ضَرٍّ، وَهُوَ الِاتِّعَاظُ وَالِاعْتِبَارُ.اهـ[١].

فمعنى ﴿يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾: أي: أنَّ القرآن سهلت دلالته وألفاظه ومعانيه لأجل انتفاع القارئ الراغب في التذكر والاعتبار بذلك التيسير.

وقد نصّ الله تعالى على ذلك في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾.

فالله تعالى يسّره بلسانٍ عربيّ لا لأجل الحفظ باللسان؛ بل لأجل أن يكون بشارة للمتقين، ونذارة للكافرين والعاصين.

فمن قرأ القرآن دون قصدٍ للاعتبار والاتعاظ والفهم والعمل به: فقد خالف مقصود الله تعالى في إنزال كتابه.

«ومَنْ لَمْ يَعْتَبِرْ بِآيَاتِ اللهِ فِي كِتَابِهِ، لَا يَعْتَبِرْ بِآيَاتِهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ»[٢].

والمسلم إذا أراد الشرف والرفعة والكرامة والمنزلة العالية في الدنيا والآخر فعليه أنْ يتخذ القرآن جليسه وأنيسه، ومصدر علمه وعمله وسعادته.

وذلك بحفظه إن استطاع، وتدبره، وفهمه، ومعرفة أسراره البلاغية، والعمل بكل ما فيه بلا تأخر وكسل.

ومن فعل ذلك فهو أفضل الخلق وأكرمهم عند الله تعالى إلا من كان مثله أو أفضل، ولو قلّ أتباعه وأحبابه وطلابه، فالمنزلة عند الله تعالى إنما هي بصدق العبد وإخلاصه واتباعه للكتاب والسُّنَّة.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ١٨٨).
(٢) تفسير المنار (١/ ٣٥٩).

وإذا أردت أن تعرف منزلة قراءة القرآن وتدبره وإمضاء الأوقات فيه: فانظر إلى حال أفضل البشر محمد ﷺ، فقد كَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَلْقَاه فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ. متفق عليه(١).

وقال لفاطمة رضي الله عنها: «إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي. رواه البخاري(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فِيهِ اسْتِحْبَاب الْإِكْثَار مِنْ الْقِرَاءَة فِي رَمَضَان، وَكَوْنهَا أَفْضَل مِنْ سَائِر الْأَذْكَار؛ إِذْ لَوْ كَانَ الذِّكْر أَفْضَل أَوْ مُسَاوِيًا لَفَعَلَاهُ. اهـ(٣).

وإذا أكثر المؤمن من قراءته بتدبر: ازداد إيمانه، وعظم يقينه، قال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله: اعْلَمْ أَنَّ قُوَّةَ الدِّينِ وَكَمَالَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ لَا يَحْصُلَانِ إِلَّا بِكَثْرَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَاسْتِمَاعِهِ، مَعَ التَّدَبُّرِ بِنِيَّةِ الِاهْتِدَاءِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَالْإِيمَانُ الْإِذْعَانِيُّ الصَّحِيحُ يَزْدَادُ وَيَقْوَى وَيَنْمَى وَتَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ آثَارُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَتَرْكِ الْمَعَاصِي وَالْفَسَادِ بِقَدْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَيَنْقُصُ وَيَضْعُفُ عَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ مَنْ تَرَكَ تَدَبُّرَهُ، وَمَا آمَنَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ إِلَّا بِسَمَاعِهِ وَفَهْمِهِ، وَلَا فَتَحُوا الْأَقْطَارَ، وَمَصَّرُوا الْأَمْصَارَ، وَاتَّسَعَ عُمْرَانُهُمْ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُمْ، إِلَّا بِتَأْثِيرِ هِدَايَتِهِ. اهـ(٤).

وإذا أردت أن تجد طعم وحلاوة القرآن: فاقرأه على منازله، قال العلامة الزركشي رحمه الله: من أراد أن يقرأ القرآن بكمال الترتيل فليقرأه

(١) رواه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).
(٢) (٣٦٢٤).
(٣) فتح الباري (١/ ٤٣).
(٤) تفسير المنار (٩/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤).

على منازله، فإن كان يقرأ تهديدًا لَفَظَ به لفظ المتهدد، وإن كان يقرأ لفظ تعظيم لَفَظَ به على التعظيم.

وينبغي أن يشتغل قلبه في التفكر في معنى ما يلفظ بلسانه فيعرف من كل آية معناها، ولا يجاوزها إلى غيرها حتى يعرف معناها، فإذا مر به آية رحمة وقف عندها وفرح بما وعده الله تعالى منها واستبشر إلى ذلك وسأل الله برحمته الجنة.

وإن قرأ آية عذاب وقف عندها وتأمل معناها، فإن كانت في الكافرين اعترف بالإيمان فقال: آمنًا بالله وحده، وعرف موضع التخويف، ثم سأل الله تعالى أن يعيذه من النار.

وإن هو مر بآية فيها نداء للذين آمنوا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقف عندها، وقد كان بعضهم يقول: لبيك ربي وسعديك، ويتأمل ما بعدها مما أُمر به ونهي عنه، فيعتقد قبول ذلك، فإن كان من الأمر الذي قد قصَّر عنه فيما مضى اعتذر عن فعله في ذلك الوقت واستغفر ربه في تقصيره. اهـ[١].

وكلامه هذا عظيم ومؤثّرٌ ونافعٌ جدًّا.



١٣ «عناية المؤمن بأصول العبادات البدنية»:

أصول العبادات البدنية: الصلاة والصيام وقراءة القرآن، وهي أعظمها قدرًا عند الله تعالى، وأكثرها ثوابًا، بعد الإيمان بالله تعالى، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الْعِبَادَاتُ الدِّينِيَّةُ[١] أُصُولُهَا: الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْقِرَاءَةُ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْن عَمْرِو بْن العاص لَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: **«أَلَمْ أُحَدَّثْ أَنَّك قُلْت لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ وَلَأَقْرَأَنَّ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثٍ؟»** قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ[٢]..

وَلَمَّا كَانَت هَذِهِ الْعِبَادَاتُ هِيَ الْمَعْرُوفَةَ قَالَ فِي حَدِيثِ الْخَوَارِجِ الَّذِي فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: **«يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»**[٣].

فَذَكَرَ اجْتِهَادَهُم بِالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْقِرَاءَةِ، وَأَنَّهُم يَغْلُونَ فِي ذَلِكَ حَتَّى تَحْقِرَ الصَّحَابَةُ عِبَادَتَهُم فِي جَنْبِ عِبَادَةِ هَؤُلَاءِ.

---

(١) لعله: البدنية، ويدل على ذلك أنّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قسّم العبادات إلى **قسمين**:
عبادات بدنية، كالصلاة، والصيام، والقراءة، وعبادات مالية، كالعتق والنحر.
ومن ذلك قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: أَجَلُّ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ النَّحْرُ، وَأَجَلُّ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الصَّلَاةُ. اهـ.
يُنظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٨٣، ١٦/ ٥٣٢، ٢٤/ ٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، ولم أجد قراءة القرآن في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولكنه جاء في قصة له أخرى، حيث قال له: «اقْرَأْ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ»، قَالَ: إِنِّي أُطِيقُ أَكْثَرَ فَمَا زَالَ، حَتَّى قَالَ: «فِي ثَلَاثٍ» رواه البخاري (١٩٧٨).

(٣) رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

وَهَـؤُلَاءِ غَلَوْا فِي الْعِبَادَاتِ بِلَا فِقْهٍ فَآلَ الْأَمْرُ بِهِم إِلَى الْبِدْعَة.. فَإِنَّهُم قَد اسْتَحَلُّوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَكَفَّرُوا مَن خَالَفَهُمْ، وَجَاءَت فِيهِم الْأَحَادِيثُ. اهـ(١).

وطالب العلم الذي جعل نصيبًا كبيرًا من وقته للعلم والتعليم والدعوة، يتأكد عليه أن يجعل نصيبًا كبيرًا كذلك للقيام بهذه العبادات العظيمة، التي هي أعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى بعد الإيمان بالله تعالى.

وهل يُراد من العلم إلا العمل؟

ومَن عرف فوائد العبادة: طاب له الاشتغال بها، وثقل عليه الاشتغال بغيرها؛ فإنَّ الكمال محبوب لذاتِه، وأكمل أحوال الإنسان اشتغالُه بعبادة الله الخالق العظيم ﷻ، فإنه يستنير قلبه بنور الإيمان، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والقراءة، وتتجمل أعضاؤه بجمال الخضوع لله.

وهذه الأحوال أشرف المراتب الإنسانية والدرجات البشرية، فإذا كان حصول هذه الأحوال أعظم السعادات الإنسانية في الحال، وهي موجبةٌ أيضًا لأكمل السعادات في الزمان المستقبل، فمن وقف على هذه الأحوال زال عنه ثقل الطاعات، وعظمت حلاوتها في قلبه.

والعبادة أمانة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢]، وأداء الأمانة واجب عقلًا وشرعًا، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات(٢).

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٣٩١ ـ ٣٩٢).
(٢) يُنظر: تفسير الرازي مع شيء من التصرف: (١/٢١٣).

وإذا قمت - **أخي المسلم** - بما تقدم، فسلم قلبك من الأمراض، وتعلّقت بالله وأقبلت إليه، وأحسنت العمل، وسارعت إلى الخيرات والأعمال الصالحة: سيَفتح الله تعالى لك - بإذن الله تعالى - بابين عظيمين، وهما:

بابان عظيمان يُفتحان لمن سَلِم قلبُه من الأمراض، وأحْسَنَ العمل



الباب الأول

خفة العبادات عليك، وراحتك عند القيام بها

إنَّ أهل الإيمان والتقى يجدون لذةً عجيبة في عباداتهم لله تعالى، التي بسببها ـ بعد توفيق الله تعالى ـ لا يشعرون بتعبٍ ومشقة العبادة مهما طالت وتنوّعت.

وإليك ـ **أخي المسلم** ـ هذه النماذج المشرقة، والأمثلة المعاصرة، التي تجلّي أنس العابدين بربهم، وخفة العبادات عليهم، وراحتهم ولذتهم أثناء قيامهم بها.



١ «اللذة والأنس في قيام الليل»:

إذا ذقت ـ **أخي المسلم** ـ حلاوة وطعم الإيمان، ومحبَّةَ صاحب الكرم والجود والإحسان ﷻ: ستجد للعبادات لذة عجيبة، وأنسًا لا نظير له، وستكون الخلوة بالله تعالى أحب إليك من كلّ شيء، وسيكون قيام الليل والناس نيام: هو عيدك، وقرة عينك، وانشراح صدرك، وصلاح بالك.

فإنّ لتيقظ المؤمن قبل الفجر وقيامه الليل وصلاة الفجر وكثرة ذكره لله بين ذلك أعظمَ الأثر على حياته وروحه ونشاطه وقوته وهمته في يومه كله، وتذكر ما ذكره ابن القيم عن شيخ الاسلام ابن تيمية رحمهما الله أنه حضرَه مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليه وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي..

ومتع الدنيا وكنوزها لا تسوى عند مَن هذه حاله شيئًا، ما دام يملك كنوز العلم والهداية والقرب من الله، فليس في الدنيا سعادة تُضاهي السعادة التي ذاقها، وصدق العلامة ابن القيم رحمه الله حينما قال: وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة، والرضا، والرزق الحسن، وغير ذلك، والصواب أنها حياة القلب، ونعيمه، وبهجته، وسروره بالإيمان، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق

نعيمه إلا نعيم الجنة.اهـ[١].

وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية، فيها الاتصال بالله، والثقة به، وحبّه ورجاؤه، والاطمئنان إلى رعايته، وستره ورضاه.

وفيها السكينة والرضا والبركة، وسكن البيوت وقبول الناس ومحبتهم ومودّتهم.

وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة، وليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله.

ولا شكّ أنّ فرح المؤمن العابد التقي بما مَنَّ الله به عليه من الهداية والعلم والعمل به ونشره لا يُقارن بفرحه بكل ما أُوتي من متع الدنيا من المال والمركب وغير ذلك، وقد قال الله تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيْ: بِهَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ فَلْيَفْرَحُوا، فَإِنَّهُ أَوْلَى مَا يَفْرَحُونَ بِهِ، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾؛ أَيْ: مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ الذَّاهِبَةِ لَا مَحَالَةَ.اهـ[٢].

وستصل ـ إذا وفقك الله للعبادة والعلم بالله ـ إلى مرحلة تنظر إلى من يفرح بمال جاءه، أو منصب حصل عليه، أو شهادة نالها: نظرة إشفاق ورحمة، حيث فرح بما لا قيمة له في الحقيقة؛ لأنه مهما أوتي الإنسان من خيرات دنيوية فإنها ستزول.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٥).

وإذا تفكرت في النعم التي أنعمها ربك عليك ستجدها أشرف من نعمهم في الدنيا، وسيبقى أثرها العظيم ـ بمشيئة الله ـ في الآخرة.

وهل هناك أعظم نعمة وأكبر منّة ممن استعمله ربّه فيما يُحب! قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: من كان اللهُ يحبُّه استعمله فيما يحبُّه محبوبُه. اهـ[(١)].

وكلّ هذا من فضل الله تعالى الذي لولاه لَمَا قدر المؤمن على شيء.

فَوَاللَّهِ لَوْلا اللَّهُ يُسْعِدُ عَبْدَهُ ... بِتَوْفِيقِه وَاللَّهُ بِالْعَبْدِ أَرْحَمُ
لَمَا ثَبَتَ الإيمَانُ يَوْمًا بِقَلْبِهِ ... عَلَىَ هذِه العِلّاتِ وَالأَمْرُ أَعْظَمُ
وَلا طَاوَعَتْهُ النّفْسُ في تَرْكِ شَهْوَةٍ ... مَخَافَةَ نَارٍ جَمْرُها يَتَضَرَّمُ
ولا خاف يومًا من مقامِ إلٰهه ... عليه بحكمِ القسطِ إذ ليس يظلم

ومثل من هذا حاله ومثل غيره: كملك عنده من المال والمتاع والملك ما لا يُحصى، فرأى رجلًا كاد يطير من الفرح لأنه حصل على وظيفة حارس أو كاتب بملغ زهيد جدًّا، فما هو شعور هذا الملك؟

اللَّهُمَّ استعملنا فيما تحب وترضا، وفرغ أوقاتنا وأذهاننا وقلوبنا لك يا رب العالمين.



(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٨).

٢ «حال بعض المعاصرين في قيام الليل»:

كم يتلذذ الذين يقومون الليل صلاةً ودعاءً وذكرًا ومناجاةً لله، ولا يشعرون بالسعادة والأنس فحسب؛ بل يتلذذون كما يتلذذ من يتمتع بأحسن متع الدنيا؛ بل وأعظم.

وتطرب قلوبهم أعظم من طرب قلب العاشق حين تمكنه من معشوقته نكاحًا لا سفاحًا؛ بل وأشدّ.

طوبى لعبد أحبَّ مولاه إِذَا خلا فِي الظلام ناجاه
قَدْ كشف الحُجُبَ عَن بواطنه فنورُ مولاه قَدْ تغشَّاه
يَقُول يا غايتي ويا أملي مَا خاب عَبْدٌ تكون مولاه

ولهم عبرٌ وقصص يكتمها أصحابها أشد من كتمان السرّ؛ لخوفهم من الرياء، ولكني وقفت على بعض هذه القصص بنفسي، أو حدثني بها من كان يعاشرهم من أبناء أو أقارب، ومن بينها:

رجل كبير السنّ يقوم من الليل قرابة ثلاث ساعات، ويهيئ مكانه للقيام، ويستعد لذلك، ولا يكاد يفتر ليلة عن القيام حتى في أحلك الظروف.

وأعرف مَن يحفظ قبل أن ينام كل يوم قدرًا من القرآن، ليقوم به بين يدي الله في قيام الليل عن ظهر قلب.

وأعرف مَن إذا استيقظ من النوم للقيام يخرّ مباشرةً في كثير من الليالي ساجدًا لله من الفرح والسرور والغبطة، ويقول: اللَّهُمَّ لك الحمد على أن فضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلًا، لك الحمد أن أيقظتني وأكثر الناس نائمون في هذه الساعة، لك الحمد أن رزقتني حبّ القيام

وكثير من الناس يحب الرقاد والنوم والفراش، ثم يبادر إلى قيام الليل.

وأعرف مَن كان في السابق يقوم الليل مشقةً وكلفةً، وكان قد مرّ عليه أنّ بعض السلف مكثوا يقومون الليل عشرين سنة بمشقة وتعب، ثم بعد ذلك وجدوا اللذة والأنس في قيام الليل، وبعد أن كابد قيام الليل قرابة سبع عشرة سنة، وجدَ مصداق كلامهم، فقد وجد أنّ أسعد أوقاتِه في قيام الليل، وينتظر موعد قيام الليل بشوق شديد ليذوق متعة قيام الليل وتلاوة كتاب الله تعالى في خلوته، وإذا قام يُبادر إلى ذكر الله تعالى وحمده والثناء عليه على توفيقه له لقيام الليل، ثم يتوضأ ويتطيَب ويُطيِّب مصلاه الذي أعدّه لقيام الليل بأفضل وأغلا بخور عنده، ثم يلبس مشلحه الذي خصّصه لقيام الليل، ويقول: اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم أتجمل هذا الجمال، وأتطيب هذا الطيب لغيرك، ثم يصف للصلاة قرابة ساعة ونصف، ويجد لذلك نشاطًا ولذةً لا تُوصف.

ولو وجدنا ما وجده هؤلاء من الأنس والراحة والسعادة في قيام الليل لتسابقنا إلى قيام الليل ومناجاة الكريم الوهاب، نسأل الله من فضله.

وقال أحد المعاصرين ممن فتح الله عليه بالهداية والإقبال عليه: كان قيام الليل من أشق الأعمال عندي في بداية طلبي للعلم، فصبرت على القيام دقائق قبل الفجر مدة من الزمن، وأحيانًا لا أستطيع، فأوتر قبل أن أنام، ثم جعلت أزيد في زمن القيام، فزدت المدة إلى نصف ساعة، ودمت على ذلك بضع سنوات، ثم زدت إلى ساعة، ودمت على ذلك ما يقارب خمس سنين، ثم زدت إلى ساعة ونصف الساعة، ثم منّ الله عليّ الآن، فأصبحت أقوم قبل أذان الفجر ما يقارب ساعتين، وأختم كلّ شهر مرة في قيام الليل، وأختم في غير قيام الليل قرابة ثلاث ختمات.

وثم زدت في وردي في قيام الليل، فشعرت بالدوار والتعب الشديد في بدني وبعض حواسيّ، فكنت أصبر وأتحمل.

ودمت على هذا عدة أيام، حتى أصبحتُ أعاني من المشقة والتعب عند الانتهاء من الصلاة، واستمر الصداع واستمرت الآلام خاصة في أسفل ظهري، فخففت القيام والقراءة إلى جزء، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: عدول المؤمن عن الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة هو من الحسنات التي يثيبه الله عليها. اهـ[١].

قال: ومما وجدته حين ذلك: أن الشياطين قد تسلطت عليّ في الأحلام الغريبة، مع أني أقرأ أذكاري بحمد الله، فعلمت أنها تضايقت من ذلك. اهـ.

وقال أحد من حبَّب الله سبحانه إليه العبادة وقيام الليل: إني أجد في قيام الليل من اللذة والأنس والفرح والسعادة ما لا أجده والله الذي لا إلٰه غيره في الأعياد والنزهات؛ لأنّ قلبي يكون فارغًا إلا من ذكر الله تعالى وتعظيمه وتلاوة كتابه ومناجاته، والإقبال عليه، والانطراح بين يديه، فكيف لا آنس وهذا حالي؟

وإني أحمد الله أني أستيقظ في الشتاء قبل الفجر بأكثر من ساعتين، ثم أذكر الله تعالى وأقرأ أواخر سورة آل عمران كما كان النبي عليه الصلاة والسلام يفعل، ثم أشرع في الصلاة، والحكمة من ذلك أن يجمع المسلم بين التفكر والعمل، وهو أفضل العمل، وأقرأ فيها ما بين

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٦٢).

الجزءِ والنصف إلى جزأين، حسب النشاط والهمة، وفي الصيف أقوم وأقرأ أقل من ذلك.

وأقرأ في كل ختمة إحدى القراءات العشر، مترسلًا مرتلًا، وإذا مررت بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحت، وَإِذَا مررت بِسُؤَالٍ سَأَلت، وَإِذَا مررت بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذت، مقتديًا بذلك بالنبي ﷺ، وأقرؤه على منازله.

وإذا قمت للصلاة أجهز ثيابي الجديدة ـ غالبًا ـ لأستفتح بها صلاتي، ثم ألبسها يومي كله، وأرتب مصلاي وأنظفه؛ استعدادًا لقيام الليل، وأهيئه لمن يحضر لاستماع قراءتي من الملائكة؛ فإنّ الخبر قد صح أنهم يستمعون للذكر وقراءة القرآن. اهـ.

والذين يقومون الليل ويحيونه تلاوةً ودعاءً وصلاةً تنزل السكينة عليهم، ويجدون رقة في قلوبهم، وغزارةً في دموعهم، وحلاوة وتدبّرًا في تلاوتهم، حتى إنهم يكادون يتأملون في كلّ كلمة يمرّون عليها، وتصل آيات القرآن إلى سويداء قلوبهم، فتقشعر منها جلودهم، وتدرّ منها دموعهم، ويشعرون خلال قراءتهم لكتاب ربهم بعظمة القرآن وإعجازه وبلاغته، ولا يعهدون ذلك إلا في قيام الليل.

وهذا ـ والله أعلم ـ من أسرار ترغيب الله تعالى لنا في الصلاة آخر الليل.

وقد أجمع العارِفُون والعابدون على أنّ آخرَ الليل أفضل الأوقات لتدبّر القرآن والتأثر به، وأمتع وآنس أوقات الصلاة والمناجاة؛ وذلك لصفاء القلب، وخلوّ الذهن من كلّ مكدّر.

قال أحد من ذاق شيئًا من الراحة في الصلاة في هذا الزمان: إني أرمق الساعة وأنا في قيام الليل، فإذا بقي أقل من ساعة دخلني القلق من

قرب طلوع الفجر، الذي بطلوعه ستنقطع عني هذه اللحظات الإيمانية، والأسرار الربانية، والفتوحات الإلٰهية، ولكن يسكن قلقي إذا علمت أنّ بعد طلوع الفجر صلاةَ الفجر وسُنَّتَها، التي أستمد منها بعض ذلك، وإنما أقول (بعض ذلك)؛ لأني لا أطيل الصلاة في صلاة الفجر، لحال أكثر الأئمة، حيث يقصرون فيها هداهم الله، ولا يقرأ كثير منهم القرآن كما ينبغي بترتيل وعناية.

وإذا صليت صلاة العشاء يبدأ الشوق يدبّ في قلبي، والحنين يختلج فؤادي، شوقًا إلى طول الوقوف بين يدي ربي، ورغبة في الحياة السعيدة الرغيدة في قيام الليل، وأستعد من الليل للصلاة، حيث أنام مبكرًا لأستيقظ بنشاط، وأتعشى مبكرًا ـ إن تعشيت ـ، ولا أكاد أوافق على الولائم التي تكون بعد صلاة العشاء؛ لأني على يقين أنها تتأخر، وإذا تعشيت متأخرًا أدى ذلك إلى تأخر نومي، وهذا سيؤثر على استيقاظي لقيام الليل بنشاط، فلذا ضحيت بالسهر والعَشاء المتأخر لأضمن ما هو ألذّ وأشهى وأحلا وأنفع في الدارين، وقد قال بعض الصالحين ـ وصدق ـ: كم من أكلةٍ منعت قيام ليلة، وكم من نظرة إلى ما لا يحل حرمت قراءة سورة. اهـ.

وإذا فات أحدهم قيام الليل لنوم أو مرض بكى واسترجع، وتحسر على فوات ليلة لم يقض فيها ساعة أو ساعتين بين يدي الكريم الوهاب، يُناجيه ويأنس به.

أعرف رجلًا سيسافر فجرًا سفرًا طويلًا شاقًّا، فعزم أن يوقت المنبّه قبل الفجر بنصف ساعة فقط؛ ليأخذ حقّه من النوم، ليكون نشيطًا في الطريق، فلما جاء لفراشه وهمّ أن يوقت الساعة خفق قلبه، وثارت

أشواق قلبه للقيام بين يدي ربه، وقال: وماذا تغني عني نصف ساعة! وبكى، ولسان حاله:

وَالصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمُوَاطِنِ كُلِّهَا   إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يُحْمَدُ

إنهم يعيشون في واد، والناس في واد!

جعلنا الله تعالى منهم.

ومن ذاق طعم ولذَّة الصلاة في جوف الليل لم يتركه ولو كان مريضًا أو مسافرًا، وإذا صلى الناس التراويح في أول الليل لم يهنأ له بال حتى يقوم من آخر الليل، يصلي ويدعو ويقرأ كتاب الله تعالى.

قال رجل حبَّب الله له قيام الليل: إذا جاء رمضان وصليت التراويح ثم نمت، قمت بدون منبه في الوقت المعتاد، وجعلت أصلي كعادتي.

وكنت قبل عنايتي بقيام الليل: لا أكاد أقوم للسحور، ويجد أهلي المشقة والعنت عند إيقاظي، وأما الآن فأنا بحمد الله من يُوقظهم للسحور، فسبحان مغير الأحوال.



٣ «حياة المؤمن صاحب قيام الليل»:

أهل القرآن المخلصون يجدون للقرآن حلاوةً لا نظير لها، وفي مناجاة الله أنسًا لا مثيل له، وقصصهم وأخبارهم تدل على أنّ أزواجهم من الحور العين تشعر بهم، والملائكة تستمع لتلاواتهم، والأخبار في إيقاظ زوجاتهم والملائكة كثيرة معروفة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برحمته عليه الملائكة تؤزُّه إليها أزًّا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها.

ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله إليه الشياطين، فتؤزُّه إليها أزًّا.

فالأول قوَّى جند الطاعة بالمدد فكانوا من أكبر أعوانه، وهذا قوَّى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه. اهـ(١).

وحال الواحد منهم ـ جعلنا الله منهم ـ وهو يترقب آخر الليل كأنه سيدخل على فتاة بكر جميلة يحبها.

وهذه حالتهم كل ليلة إلا ما شاء الله، فهل هناك حياة أعظم وألذ وأطيب من هذه الحياة؟

هل هناك عيش أفضل من هذا العيش؟

هل يتسلل الملل والسآمة والكآبة إلى قلوبهم وهذه حالتهم كل يوم؟

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء (ص٥٦).

هل سيتعلقون بالدنيا وحطامها ومناصبها وهم في أعظم منصب وأشرف مكانة؟

ولقد نزع الله تعالى منهم حب الدنيا والتعلق بها بفضله وكرمه؛ وذلك حينما ذاقوا العيش السعيد، بتمسّكهم بهذا الدين العظيم، وتسلّحهم بالعلم، ومسارعتهم إلى الطاعات، وقربهم من ربّ الأرض والسموات.

وحقّ لك ـ **أخي المسلم** ـ أنّ تتساءل: هل ينام المؤمن وحافظ القرآن وهو يعلم شرف قيام الليل وفضله ودأب الصالحين في إحيائه؟

ولو ذاقوا شيئًا من حلاوته، والكرامات التي يوزعها الله على أصحاب قيام الليل، لَمَا فتروا عن القيام وتلاوة القرآن.

وإنهم يجدون انشراحًا لولا تثبيت الله لانخلعت قلوبهم فرحًا وأنسًا وحبًّا للقاء الله تعالى ودخول جنته ودار كرامته.

ولو لم يكن في العبادة إلا ما يعقُبُها من السعادة والراحة والسكينة والطمأنينة لكان كافيًا، فكيف وما هي إلا ذرةٌ من نعيم الجنة!

فقد صحّ عن رسول اللهِ ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»[١].

غمسةٌ واحدة في الجنة تُنيسه كلّ ما مرّ عليه في الدنيا من الآلام، والمصائب، والعذاب، والأوجاع!

(١) صحيح مسلم (٢٨٠٧).

اللَّهُمَّ إنا نسألك الفردوس الأعلى من الجنة.

ومن اللذة التي لا تفارقهم: حينما يوقظون أهليهم وأولادهم لصلاة الفجر، ثم يخرجون ذاكرين الله تعالى أثناء مشيهم للصلاة، ثم يصلون الفجر بخشوع وخضوع وسرور، ويرجعون إلى بيوتهم بعد الفجر، وفي بعض الأيام يرجعون بعد شروق الشمس.

وإنهم ـ والذي لا إله غيره ـ لا يعتقد الواحد منهم بأن هناك أحدًا من التجار والرؤساء والوزراء أسعد منهم، إلا من وفقه الله للقناعة والهداية، وعاش مثل ما يعيشون في نعيم الهداية والدين والعلم والقناعة والرضا.

وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في حوادث سنة (٧٢٣) حينما ترجم لأحد الأكابر من الشافعية، الذي تولى مناصب عالية في الدولة: وَكُلُّها مَناصِبُ دُنْيوِيَّةٌ انْسلخَ مِنْها وانْسلخَتْ مِنْهُ، ومضَى عنها وتَرَكها لِغيْرِه، وأكْبرُ أُمْنِيَّته بعد وفاته أنَّهُ لَمْ يكُنْ تولَّاها، وهي متاعٌ قلِيلٌ مِنْ حَبيبٍ مُفارِقٍ. اهـ[1].

وصدق القائل:

إنَّ المناصبَ لا تدومُ لواحدٍ إنْ كنت في شكٍ فأين الأول
فاصنعْ مِن الفعل الجميل فضائلًا فإذا عُزِلْتَ فإنَّها لا تُعزَل

وما أجمل ما قاله بعض السلف: من قَرَأَ الْقُرْآن فَرَأى أَن أحدًا أُعْطي أفضل مِمَّا أُعْطي فقد عظَّم صَغِيرًا وَصغَّر عَظِيمًا.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمعناه: لَا يَنْبَغِي لحامل

(١) البداية والنهاية (١٤/ ١٢٢).

الْقُرْآن أَن يرى أحدًا من أهل الأَرْض أغْنى مِنْهُ وَلَو ملك الدُّنْيَا برحبها. اهـ[(١)].

فسبحان من فاوَت بين الخلق في هِمَمِهم، حتى ترى بين الهمتين أبعد مما بين المشرقين والمغربين؛ بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى عليين، وتلك مواهب العزيز الحكيم ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١].

فاللَّهُمَّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك على هدايتك لنا، وإنزال كتابك علينا.

وما بلغ المهدون في القول مدحة   وإنْ أطنبوا إلّا الّذى فيك أفضل

اللَّهُمَّ اجعلنا من هؤلاء الصالحين الذين اصطفيتهم وأخلصتهم لك.



(١) غريب الحديث (٢/ ١٧١).

«بعض الوقفات في الآيات الستّ الأولى من سورة المزمل»:

تأمل كيف أمر الله تعالى ﷺ نبيّه في بداية الرسالة بقيام الليل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ١ ـ ٦].

فقد أمر الله تعالى نبينا ﷺ أنْ يقوم على أقلّ تقدير ثلث الليل، وهذا ليس بالقليل، فلو كانت ساعات الليل اثنتي عشرة ساعة، فإنه سيقوم أربع ساعات على الأقل.

ثم أمره ـ تعالى ـ ترتيل القرآن فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ ومعنى تَرْتِيلُ القِراءة: «التَّأني فِيهَا والتَّمهُّلُ وتَبْيين الْحُرُوفِ والحَركات»[1].

فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

والمراد من كونه ثقيلًا: عظم قدره، وجلالة شأنِه، وثقل العمل بحدوده وفرائضه.

«وَحَسْبُكَ أَنَّهُ حَوَى مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ مَا لَا يَفِي الْعَقْلُ بِالْإِحَاطَةِ

---

(١) النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٩٤)، مادة: (رتل).
وقد اشتهر عند كثير من الناس بأن الترتيل هو جمال الصوت في القراءة، وهذا خطأ، فجمال الصوت شيء، والترتيل شيءٌ آخر.

بِهِ، فَكَمْ غَاصَتْ فِيهِ أَفْهَامُ الْعُلَمَاءِ مِنْ فُقَهَاءَ وَمُتَكَلِّمِينَ وَبُلَغَاءَ، وَلُغَوِيِّينَ وَحُكَمَاءَ، فَشَابَهَ الشَّيْءَ الثَّقِيلَ فِي أَنَّهُ لَا يَقْوَى الْوَاحِدُ عَلَى الِاسْتِقْلَالِ بِمَعَانِيهِ»[1].

وقال بعض المفسرين: إنَّ ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن؛ لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدوء، فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه. اهـ.

«ويعني بقوله: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ ناشئة الليل أشد ثباتًا من النهار وأثبت في القلب»[2].

وَأَقْوَمُ قِيلًا: أي: أسد مقالًا وأثبتُ قراءة لهدوّ الأصوات، وصفاء القلب، ونزول السكينة.

فمن قام الليل وقرأ فيه القرآن رسخت معاني القرآن وأسرار الصلاة في قلبه، وثبتت حلاوة منجاة الله في فؤاده، فتجده أفتق الناس ذهنًا، وأصلحهم قلبًا، وأشرحهم صدرًا.

قال الشَّيْخ محمد الأمين الشنقيطي ـ رَحْمَه اللهِ تَعَالَى ـ: لَا يُثَبِّتُ الْقُرْآنَ فِي الصَّدْرِ، وَلَا يُسَهِّلُ حِفْظَهُ وَيُيَسِّرُ فَهْمَهُ إِلَّا الْقِيَامُ بِهِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ.

قال الشَّيْخ محمد عطية سالم عن شيخه محمد الأمين ـ رَحِمَهما الله تَعَالَى ـ: وَقَدْ كَانَ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ لَا يَتْرُكُ وِرْدَهُ مِنَ اللَّيْلِ صَيْفًا أَوْ شِتَاءً، وَقَدْ أَفَادَ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، فَكَانَ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/ ٢٦٢).

(٢) تفسير ابن جرير (٢٣/ ٦٨٣).

وَهَكَذَا هُنَا فَإِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ كَانَتْ عَوْنًا لَهُ ﷺ عَلَى مَا سَيُلْقَى عَلَيْهِ مِنْ ثُقْلِ الْقَوْلِ(١).

فمن أراد أن يعينه الله على طلب العلم والعمل به ونشره، وأن يعينه على هموم الدنيا وأشغالها فعليه بقيام الليل.

والإنسان إذا أقبل على العبادة والذِّكر في الليل المظلم، في حالٍ لا تكون حواسُّه مشغولة بشيء: أقبل قلبُه على الله تعالى إقبالًا عظيمًا، وفرَغ من كل شيء إلا من ذكرِه وتعظيمِه كأنه يراه.

بخلاف النهار؛ فإن الحواس تكون مشغولة بالمحسوسات والمادّيات.

وفي أمر الله تعالى لنبيه بقيام الليل في ابتداء نبوته إشارة إلى أنّ الصلاة هي أعظم أسباب ثبات المؤمن، وقوته، ونهوضِه لِحَمْل أمانة العلم، والعمل به، والدعوة إلى الله، وتحملّ الأذى والمشاق في سبيل الله.



---

(١) أضواء البيان (٨/ ٣٥٩).

٤ «ذهاب تعب الصيام لمن صبر ابتغاء وجه الله»:

كلّ عمل يكون شاقًّا في البداية، خفيفًا في النهاية، وقد يتحول إلى لذة وراحة، بالاستعانة بالله ثم بالصبر والمجاهدة.

ومن العبادات الشاقة على الكثير من الناس: صيام النافلة، ومن أراد أن يفتح الله له هذا الباب العظيم، والفضل الكبير، وتزول عنه أتعابُه وآلامُه: فليُكثر من صيام الاثنين والخميس، مستعينًا بالله، متوكِّلًا عليه، راغبًا إليه وداعيًا أن يعينه، وليصبر ولا يكلّ ولا يمل حتى يُفتح له الباب.

أعرف رجلًا كان لا يطيق الصيام؛ لأنه أشقُّ العبادات عليه، وإذا صام شهر رمضان صامه بجهد ومشقة، وكثيرًا ما يؤلمه رأسه بسبب الصيام، ولا يكاد يصوم إلا ما افتُرض عليه، مع الستّ من شوال، ويوم عرفة وعاشوراء، فأَكْرَه نفسه على صيام الاثنين والخميس، ووجد في البداية مشقة عظيمة، وكلفة كبيرة، حتى فتح الله له من فضله، فأصبح الصوم من أسهل العبادات عنده.

قال: إنما عزمت على صيام يوم الاثنين والخميس؛ لأنني أشعر بالتقصير وتأنيب الضمير؛ إذ لم يكن لي نصيبٌ من هذه العبادة العظيمة، وقد جاء في فضل الصوم الآثار الكثيرة، وإذا عُرف الثواب هان في جنبه مقاساةُ المشقات!

ومهما عملت وقمت من الليل ما كتب الله لي، إلا أني أشعر بقصور كبير ونقص عظيم حيث لم أصم إلا رمضان وستًّا من شوال وعرفة وعاشوراء مع التاسع.

قال: والصوم من أشق العبادات علي، وإذا جاء رمضان فإني أجد العناء في صومه، وأجد الهمّ من صوم الست من شوال، ومن صوم يوم عرفة وعاشوراء.

ولقد صمت أوَّل نفل مطلق، وكان يوم الاثنين، وشعرت بشيء من الجوع، ولكن قذف الله تعالى في قلبي العزيمة والهمة على مواصلة صيام كلّ اثنين وخميس.

وقد لاحظتُ أنّ من أعظم العوائق في السابق عن صيام النوافل المطلقة: أنها تحجزني عن الاستمتاع بالأكل وخاصة الغداء والشاي بعده، وأتوهّم أن يومي سيكون يومًا شاقًّا، وإنما أتحمل هذه المشاق طلبًا للأجر واتباعًا للسُّنَّة.

ولكن مع صبري على الصيام تلاشى هذا العائق بحمد الله تعالى، وأصبح الغداء أمرًا عاديًّا عندي، وكذلك الشاي والفاكهة وبقية الأطعمة، وجعلت أتخيل لذة القهوة حين الإفطار، ولذة العشاء بعد صلاة المغرب، ومع مرور الأيام أصبحتُ أشتاق للقهوة مع أذان المغرب، والعشاء بعده، وحلّت هذه اللذة محلّ لذة الغداء والأكل في النهار، فلم يعد الصوم شاقًّا عليّ.

قال: وبعد قرابة أربعة أشهر من بداية صومي الاثنين والخميس دخل شهر رمضان، فلم أجد فيه أيّ تعب ولا كلفة، وجعلت أقول: سبحان مغيّر الأحوال! فقد كنت في السابق إذا دخل شهر الصوم أجد فيه التعب والإرهاق، والإحساس بالجوع، وأترقّب مغيب الشمس لأفطر، وأجد أنّ نظامي كلّه تغير في رمضان.

والانتقال دائمًا من شيء إلى شيء شاق وصعب، ولكن مع

ترويض النفس ومجاهدة الهوى واحتساب الأجر يصبح الأمر سهلًا جدًّا. اهـ.

ومما لا شك فيه: أنّ الإنسان إذا عوّد بدنه على شيء اعتاد عليه وأَلِفَه، كما أنّه إذا عوّد نفسه تغيير طباعه وأخلاقه تغيرت واعتادت على ذلك.

وقد قال أهل الطب: إنّ المخّ يعطي إشارات للجسم إذا حان الوقت المعتاد لعمل شيء، كأكل الطعام، أو النوم، فيشعر الإنسان بتعلّقٍ ورغبةٍ شديدة في ذلك الوقت للقيام بالأمر الذي اعتاده؛ نظرًا لإشارات المخ الملحّة، فإذا صبر على ترك العادة قلَّتْ إشارات المخ يومًا بعد يوم، فانفك البدن عن هذه الرغبة الملحّة.

وأثبتت الدراسة الحديثة أنَّ خلايا المخ تقوم بعملية ربط الأفعال لتُشكل عادة معينة، ووجد الباحثون أنَّ هناك منطقةً في المخ هي المسؤولة عن اتخاذ القرارات وتشكيل العادات.

وأثبتوا أنّ هناك مجموعةً من الإشارات العصبية تنتقل في صفٍّ واحد، عبر مركز اتخاذ القرارات في الدماغ، وتتجمع لتتحول إلى أفعال تلقائية، وهي التي تسمى (عادات).

لكن عندما يتحول ذلك الأمر إلى عادة لا يطلق المخ تلك السلسلة من الإشارات العصبية؛ بل يطلق إشارة عصبية واحدة في بداية فعل العادة، وإشارة عصبية واحدة عند الانتهاء من فعل تلك العادة؛ لتُنَبِّه بانتهاء فعل تلك العادة المطّردة.

وقالوا: إنّ كسر العادات قد يكون أمرًا مرهقًا ومتعبًا في بداية الأمر؛ لأن المخ قد اعتاد على تصرفٍ معين، تتحكم فيه الإشارات

العصبية في المخ[١].

فاحرص ـ **أخي المسلم** ـ على الإكثار من صيام النافلة، وسوف تعتاد على ذلك ويسهل عليك، وستجد فيه ما لا يخطر على بالك بمشيئة الله وتوفيقه.

وقد جرب المجربون، وأثبت المختصون، أنّ أفضل وجبةٍ للسحور: الطعام الغنيّ بالعناصر الغذائية المهمة، التي تقي الجسم لزمن طويل من الإحساس بالجوع والعطش؛ كالخضار، واللبن، وعصير الفواكه المشكلة الطبيعي، وغيرها.

وأنّ الإكثار من السحور لا يمنع الجوع لساعاتٍ أطول؛ لأن المعدة تهضم الأكل في ساعتين إلى أربع ساعات، ثم يشعر الصائم بالجوع بعدها[٢].

فمن أراد الصحة والسلامة من الكثير من الأمراض: فعليه بوصيّة نبيّنا محمد ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[٣].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: هَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ جَامِعٌ لِأُصُولِ الطِّبِّ كُلِّهَا. اهـ[٤].

---

(١) للاطلاع على كلام الباحثين يُنظر إلى هذا الرابط: http://cutt.us/MqWx

(٢) قال المختصون: وإنما يشعر الذي يُكثر من الأكل بالجوع بعد ساعات من هضم الطعام: لأن هضم تلك الكمية يزيد من السعرات الحرارية، وإن لم يستهلكها بالمشي فسيضطر البنكرياس لإفراز مزيد من الأنسولين، وحينها يزداد شعوره بالجوع.

(٣) رواه الإمام أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠) وابن ماجه (٣٣٤٩). وصححه الترمذي والألباني.

(٤) جامع العلوم والحكم تحقيق الأرنؤوط (٢/ ٤٦٨).

«مقارنة بين عبادة الصيام والصلاة»:

جعل الله تعالى للجنة أبوابًا كثيرة، خصّ منها بابين لأهل الصلاة والصيام، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»**.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا، قَالَ: **«نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»**[(١)].

فهنيئًا للمكثرين والملازمين لهذه العبادات العظيمة.

وهناك فروق بين عبادة الصيام وعبادة الصلاة من الناحية العمليّة، **ومن بين ذلك:**

١ ـ أنّ بالإمكان الاعتياد على الصوم بلا مشقّة خلال مدّة قليلة، بخلاف الصلاة بخشوع وطمأنينة، فلا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بعد زمن طويل مليءٍ بالصبر، والمجاهدة، وحضور الذهن، والتأمل.

٢ ـ أنّ «الصَّلَاةَ فِيهَا سِجْنُ النَّفسِ، وَالصَّوْمُ إِنَّمَا فِيهِ مَنْعُ الشَّهْوَةِ، فَلَيْسَ مَنْ مَنَعَ شَهْوَةً وَاحِدَةً أَوْ شَهْوَتَيْنِ كَمَنْ مَنَعَ جَمِيعَ الشَّهَوَاتِ.

---

(١) رواه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

فَالصَّائِمُ إِنَّمَا مَنَعَ شَهْوَةَ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ثُمَّ يَنْبَسِطُ فِي سَائِرِ الشَّهَوَاتِ مِنَ الْكَلَامِ وَالْمَشْيِ وَالنَّظَرِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُلَاقَاةِ الْخَلْقِ، فَيَتَسَلَّى بِتِلْكَ الْأَشْيَاءِ عَمَّا مُنِعَ.

وَالْمُصَلِّي يَمْتَنِعُ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ، فَجَوَارِحُهُ كُلُّهَا مُقَيَّدَةٌ بِالصَّلَاةِ عَنْ جَمِيعِ الشَّهَوَاتِ.

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَتِ الصَّلَاةُ أَصْعَبَ عَلَى النَّفْسِ، وَمُكَابَدَتُهَا أَشَدَّ»[1].

فغاية الصوم حبس النفس عن بعض شهواتها، بخلاف الصلاة، ففيها منع النفس عن جميع الشهوات.

٣ ـ أنّ في الصلاة اكتساب جميع المعارف والأحوال الإيمانية، من الخوف والرجاء والتوكل والصبر ومناجاة الله تعالى، والخضوع والخشوع والأدب معه تعالى، بخلاف الصوم.

فلذلك أَكْثَرَ اللهُ تعالى من مدح الصلاة والمصلين بخلاف الصوم والصائمين.

٤ ـ أنَّ الصلاة وجميع الأعمال الشرعية التي يقوم بها المسلم على وجهها الصحيح: يجد لها لَذَّةً وحلاوةً وأنسًا وانشراحًا، أو مصالح عاجلة؛ كجهاد الكفار، بخلاف الصوم، فإنه يخلو من ذلك تمامًا، فليس في الصوم أيّ لذة وانشراح صدر، حيث امتنع مما يشتهيه من لذيذ الطعام والشراب، الذي يقويّه ويذهب عنه حرارة الجوع، فالصوم أشقّ وأصعب من هذه الجهة؛ ولأجل ذلك ـ والله أعلم ـ خصّ الله تعالى

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٦٩).

الصَّوْمَ بأنَّهُ لهُ وإنْ كانتِ الْعِباداتُ كُلُّها لهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«قَالَ اللهُ ﷻ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»**(١).

قال الخطابي: لأن أعمال بني آدم كلها لهم فيها حظٌّ إلا الصيام، فإنهم لا حظّ لهم فيه. اهـ(٢).

وقد أخبر الله تعالى أنّ الصائم يترك شهْوتَهُ وطعامَهُ منْ أجْله؛ فالصائم هجر اللذائذ والمتع والشهوات لله تعالى.

لكن يجد الصائم لذة وسعادة من جهة أخرى، وهي أنَّ الله تعالى منّ وتفضَّل عليه بأنْ هداه ووفَّقه للعمل الصالح.

ويشتركان في أمور كثيرة منها:

١ ـ عظم أجرهما.

٢ ـ محبة الله تعالى للصائمين والمصلين.

٣ ـ أنّ الصوم الخالص لله تعالى، والصلاة ذات الخشوع كليهما تزكيان النفس أيما تزكية، وتكسران شهوتها وطغيانها وحدّتها وتعاليها وغرورها وعجبها.

قال ابن رجب رحمه الله: إنَّ قلة الغذاء توجب رقة القلب، وقوة الفهم، وانكسار النفس، وضعف الهوى والغضب، وكثرة الغذاء توجب ضد ذلك. اهـ(٣).

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٢١١ ـ ٢١٦).

(٣) جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط (٢/ ٤٦٩).

ولا تكاد تجد من يُكثر من الصيام والصلاة وفيه عجب، أو كبر، أو تسلّط على الآخرين، أو ميل للشهوات: كشهوات النساء، أو المال، أو الجاه، أو المنصب.

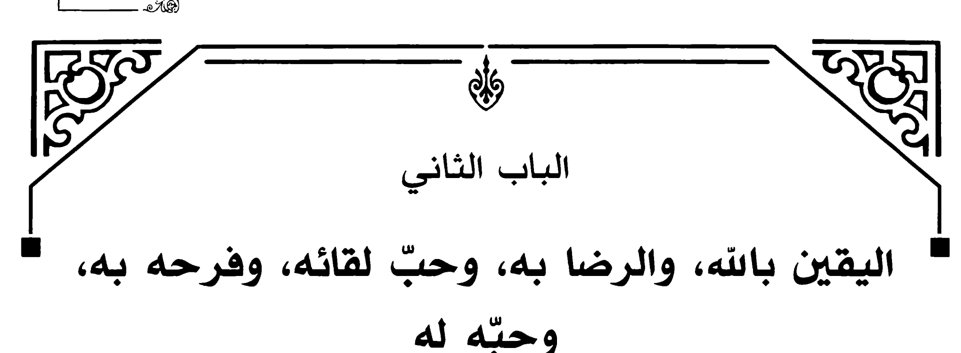
وكم في القلوب من أمراض مهلكة، إذا لم يسع المرء في الخلاص منها ويجتهد في ذلك غاية الاجتهاد: هلك وانتكس، وطغت حتى تظهر على لسانه وسائر جسده، فيُصبح بذيء اللسان، جبارًا، ظالمًا، شرهًا.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا أَقْرَبَ الْجَبْرَ مِنْ الْقَلْبِ الْمَكْسُورِ! وَمَا أَدْنَى النَّصْرَ وَالرَّحْمَةَ وَالرِّزْقَ مِنْهُ! وَذَرَّةٌ مِنْ هَذَا وَنَفَسٌ مِنْهُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ طَاعَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنَ الْمُعْجَبِينَ بِأَعْمَالِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَأَحَبُّ الْقُلُوبِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ قَلْبٌ قَدْ تَمَكَّنَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْكَسْرَةُ، وَمَلَكَتْهُ هَذِهِ الذِّلَّةُ، فَهُوَ نَاكِسُ الرَّأْسِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَيْهِ حَيَاءً وَخَجَلًا مِنَ اللهِ.اهـ(١).

٤ ـ أنهما سبب في الصحة النفسية والبدنية، فمن أَكْثر من الصوم، الذي يتخلص به من السموم والأمراض، وأكثر من الصلاة التي فيها حركة كثيرة للأعضاء، وفيها الطمأنينة والسكون والخشوع: فقد سلّمه الله تعالى من أهمّ الأمراض النفسية والبدنية، التي ابتُلي بها أكثر الناس.

٥ ـ أنهما من أعظم أسباب رفع الهمة، والوقايةِ من السآمة والملل؛ لأنّ مداومة الإنسان على نظام واحد يُصيبه بالملل والسآمة والفتور.

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٢٨).



الباب الثاني

اليقين بالله، والرضا به، وحبّ لقائه، وفرحه به، وحبّه له

إنّ ما تقدم ذكره من حلاوة ولذّة العبادات الظاهرة، إنما هي قطرةٌ في بحار حلاوات ولذائذ العبادات القلبيّة، والتي لا يذوقها إلا من اصطفاه الله تعالى وأتمّ عليه النعمة.

ومن ذاقها وخالطتْ قلبَه حلاوةُ الإيمان، وطعمُ اليقين والرضا: فلن يسلبها الله تعالى منه بإذنه ومشيئته عَزَّ وَجَلَّ:

ـ لأنه تعالى لا يُعطيها إلا من أحبّه، ووالاه، وقرّبه، وأراد كرامته ورفعته في الدارين.

ـ ولأنّه لا يصل أحدٌ لهذه المنزلة إلا بعد طول مجاهدات، وكثرة عبادات، وعلم بالله وبأسمائه وصفاته، وتخلّص من جميع الأمراض القلبية، والعادات الجاهليّة، ولا تقطع هذه المسافات الطويلة، والمفازات العريضة، إلا بعون من الله تعالى، وكرامة وعناية ولطف من الرحيم جَلَّ وَعَلَا، ومثل هذا لن يُخذل بإذن الله تعالى.

ـ ولأنّ من ذاق هذه اللذة والكرامة لا يُمكن أن ينزع عنها صاحبها، ولن يفارقها إلا إذا فارقت روحُه جسده.

وهذا بخلاف حلاوة ولذّة العبادات الظاهرة، فقد يذوقها كثير الناس، ثم يتراجع بعد ذلك، فيفتر، أو ينتكس والعياذ بالله تعالى.

والفرق بين ذوق طعم وحلاوة العبادات الظاهرة والباطنة: كالفرق بين ذوق محب العلم وطالب العلم للعلم.

وهناك فرق كبير، وبونٌ شاسعٌ، بين محبّ العلم، وطالب العلم.

فطالب العلم:

١ ـ هو الذي يطلبه بجدّ وشغف وحبّ وتضحية.

٢ ـ ويقضي كلّ وقته أو جلّه في العلم بكلّ وسيلة: بالبحث، وضبط المتون، وقراءةَ الكتبِ الْمُطوّلةِ، والمُخْتَصَرة.

٣ ـ ويقرأ الكتب التي تنفعه وتُؤصّله، ولو كان لا يستمتع بها.

ولسان حاله: لا أترك القراءة والبحث إلا لحاجة أو ضرورة، وأقرأ ما ينفعني ويؤصلني، فالعلم بالنسبة له: غذاؤه وروحه وقرة عينه.

وتراه محقّقًا، لا مجرد ناقل ومتذوّق، ومرجحًا من أقوال العلماء ما عضدته أدلّةُ الكتاب والسُّنَّة.

وطالب العلم الذي هذا هو حاله: لا يُفارق العلم والقراءة، حتى تُفارق روحُه جسده؛ بل لو طُلب منه أنْ يترك مكتبته ويتقاضى عشرات الآلاف شهريًّا لَمَا قبِل ذلك.

وأما محبّ العلم:

فهو يحب القراءة في الكتب التي يهواها، ولسان حاله: أقرأ متى فرغت، وما أحببت؛ فالعلم بالنسبة له: فضلةٌ وتسليةٌ ومتعة.

وقد يكون محبُّ العلم أكثرَ من طالب العلم اطلاعًا، وقراءةً، واستشهادًا بأقوال العلماء في مختلف الفنون، ولكنه أقلّ بكثير منه رسوخًا، وفهمًا، وقدرةً على الاستدلال، والاسْتنباط، والاجتهاد، والفتوى.

وما أكثر ما يترك العلمَ محبّوه ويهجروه، وكأنْ لم تكن بينهم وبينه مودّة وصلة وعلاقة وصحبة.

فشتان بينهما، ولَمَا بينهما كما بين السماء والأرض.

وسأقف مع شيء من أسرار حلاوة الإيمان، وطعم اليقين والرضا والمحبة.



١ «ذوق حلاوة وطعم الإيمان»:

من أعظم ثمرات طهارة قلبك من الأمراض، وصدقك مع الله تعالى في الاجتهاد في صلاح قلبك وعملك: إكرام الله لك ـ بإذن الله تعالى ـ بذوق طعم وحلاوة الإيمان، ويا له من طعم ما أحلاه، ويا لها من حلاوة ما ألذها.

والإيمان له حلاوة في القلب ولذة، لا يُساويها شيء أبدًا، ولا يجد القلب عشر هذه الحلاوة واللذة ولو ذاق كلّ حلاوات ولذائذ الدنيا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْقَلْب إِذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ: لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ قَطُّ أَحْلَى مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَطْيَبَ.

والْقَلْبُ لَا يَصْلُحُ وَلَا يُفْلِحُ وَلَا يَلْتَذُّ وَلَا يُسَرُّ وَلَا يَطِيبُ وَلَا يَسْكُنُ وَلَا يَطْمَئِنُّ إلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ وَحُبِّهِ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ، وَلَوْ حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَطْمَئِنَّ وَلَمْ يَسْكُنْ، إذْ فِيهِ فَقْرٌ ذَاتِيٌّ إلَى رَبِّهِ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ وَمَحْبُوبُهُ وَمَطْلُوبُهُ، وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ وَاللَّذَّةُ وَالنِّعْمَةُ وَالسُّكُونُ وَالطُّمَأْنِينَةُ.

ولَيْسَ عِنْد الْقلب السَّلِيم أحلى وَلَا ألذّ وَلَا أطيب وَلَا أسر وَلَا أنعم من حلاوة الْإِيمَان، المتضمن عبوديته لله، ومحبته لَهُ وإخلاص الدّين لَهُ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي انجذاب الْقلب إِلَى الله، فَيصير الْقلب منيبًا إِلَى الله خَائفًا مِنْهُ رَاغِبًا رَاهِبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ

وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾». اهـ[١].

«فَلِلْإِيمَانِ طَعْمٌ وَحَلَاوَةٌ يَتَعَلَّقُ بِهِمَا ذَوْقٌ وَوَجْدٌ، وَلَا تَزُولُ الشُّبَهُ وَالشُّكُوكُ عَنِ الْقَلْبِ إِلَّا إِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ، فَبَاشَرَ الْإِيمَانَ قَلْبُهُ حَقِيقَةَ الْمُبَاشَرَةِ، فَيَذُوقَ طَعْمَهُ وَيَجِدَ حَلَاوَتَهُ»[٢].

والله تعالى يقول للمؤمنين الذين جاؤوا إليه يشفعون لإخوانهم وأهلهم وأصدقائهم في الدنيا: «اذهبوا ـ إلى النار ـ فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه»[٣]..

فإذا كان مثقالُ ذرة من إيمان بالله يُخَلِّص من الخلود في دار الآلام، فكيف بإيمانٍ عظيم كبير بالله، وحبٍّ وإخلاصٍ له، وغَيْرةٍ على دينه؟

أتدري بماذا وَعَد الله هؤلاء:

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات:

١ ـ جنات تجري من تحتها الأنهار.

٢ ـ خالدين فيها.

٣ ـ ومساكن طيبة.

٤ ـ في جنات عدن.

٥ ـ ورضوان من الله أكبر.

ذلك هو الفوز العظيم).

نسأل الله من فضله.

---

(١) العبودية (ص٧٩، ٨٧، ١١٨).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/٨٨).

(٣) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

٢ «اليقين بالله تعالى»:

إنّ الغاية من طلب العلم والعبادة: هي أنّ يصل المؤمن إلى منزلة اليقين التامّ بالله تعالى، فإذا منّ الله تعالى عليه باليقين به وبكتابه وباليوم الآخر: أورثه سعادة ولذة عظيمة، وشوقًا إلى لقاء ربّه، وحبًّا له.

وقد كان السلف الصالح يتعلّمون اليقين بالله تعالى، كما قال بعض السلف: تعلموا اليقين كما تتعلمون القرآن حتى تعرفوه، فإني أتعلمه[1].

واجعل مقولة أحد السلف حاضرة بين عينيك: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا.

قال أحد المعاصرين ممن فتح الله تعالى عليه بالهداية والإقبال عليه: لم أستوعب هذا الكلام حينما وقفت عليه في بداية طلب العلم، وبعد أنْ وفّقني الله تعالى بكثرة العبادة، والقرب منه، والعناية بصلاح قلبي، استوعبت هذا الكلام، وجعلت أقول: لا أظنني سأزداد يقينًا على يقيني لو كُشف الغطاء، ولو رأيت الجنة والنار.اهـ.

«والْيَقِينُ: هُوَ طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ وَاسْتِقْرَارُ الْعِلْمِ فِيهِ.. وَضِدُّ الْيَقِينِ الرَّيْبُ، وَهُوَ نَوْعٌ مِن الْحَرَكَةِ وَالِاضْطِرَابِ..

فَأَهْلُ الْيَقِينِ إذَا ابْتُلُوا ثَبَتُوا، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ، فَإِنَّ الِابْتِلَاءَ قَد يُذْهِبُ إيمَانَهُ أَو يُنْقِصُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أَلَا تَرَى إلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا

---

(١) موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ٢٢).

لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ فَهَذِهِ حَالُ هَؤُلَاءِ..

وَأَمَّا كَيْفَ يَحْصُلُ الْيَقِينُ؟ فَبِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ.

وَالثَّانِي: تَدَبُّرُ الْآيَاتِ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللهُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ الَّتِي تُبَيِّنُ أَنَّهُ حَقٌّ.

وَالثَّالِثُ: الْعَمَلُ بِمُوجِبِ الْعِلْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ.

فَإِنَّ الْعَمَلَ بِمُوجِبِ الْعِلْمِ يُثْبِتُهُ وَيُقَرِّرُهُ، وَمُخَالَفَتُهُ تُضْعِفُهُ بَلْ قَدْ تُذْهِبُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾»[١].

وباليقين تُنال الإمامة في الدين، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فَمَنْ أُعْطِيَ الصَّبْرَ وَالْيَقِينَ: جَعَلَهُ اللهُ إمَامًا فِي الدِّينِ.

فبالصبر تُترك الشهوات، وباليقين تُدفع الشبهات.

وباليقين تُنال الكرامة في دار النعيم، قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: **«مَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»**. رواه مسلم[٢].

والمؤمن الصادق يُكثر من سؤال الله تعالى أنْ يَهْبَ له اليقين، وقد

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٣٢٩ ـ ٣٣٢).

(٢) (٣١).

قال النَّبِيّ ﷺ: «**سَلُوا اللهَ الْيَقِينَ وَالْعَافِيَةَ، فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ شَيْئًا خَيْرًا مِن الْعَافِيَةِ**»(١).

واليقين لا يعطيه الله تعالى العبد إلا بعد أن يمتلئ قلبُه بالإيمان به، وحبّه والإقبال عليه، ومتى حلّ اليقين والإيمان بالقلب، كان ذكر الله وعبادته أطيب شيء إليه، ومعصيتُه أبغض الأشياء إليه، حتى إنّ المعاصي والشهوات المحرمة؛ كالزنا وصور النساء العاريات، تصبح بغيضةً طبعًا، بعد أن كانت بغيضة تعبُّدًا، وينفر وبشدة من الراحة بلا فائدة، ومن الشهوةِ بلا مقصدٍ صالحٍ منها، فتكون حياتُه كلّها لله وبالله وفي الله.

ومن اليقين الذي لا ينبغي أن يفارقك: يقينك باطلاع الله تعالى عليك، حتى تكون كأنك تراه ﷻ من شدة استحضارك لعظمته واطلاعه وإحاطته، ولا يفارقك قَوْلُ النبي ﷺ فِي تَفْسِيرِ الْإِحْسَانِ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

«يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْعَبْدَ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، وَهِيَ اسْتِحْضَارُ قُرْبِهِ، وَأَنَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَذَلِكَ يُوجِبُ الْخَشْيَةَ وَالْخَوْفَ وَالْهَيْبَةَ وَالتَّعْظِيمَ.. وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَلْيَعْبُدِ اللهَ عَلَى أَنَّ اللهَ يَرَاهُ وَيَطَّلِعُ عَلَيْهِ، فَلْيَسْتَحْيِ مِنْ نَظَرِهِ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَتْ بَعْضُ الْعَارِفَاتِ مِنَ السَّلَفِ: مَنْ عَمِلَ للهِ عَلَى الْمُشَاهَدَةِ، فَهُوَ عَارِفٌ، وَمَنْ عَمِلَ عَلَى مُشَاهَدَةِ اللهِ إِيَّاهُ، فَهُوَ مُخْلِصٌ.

فَأَشَارَتْ إِلَى الْمَقَامَيْنِ اللَّذَيْنِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمَا:

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥)، (١٧)، (٣٤)، وابن ماجه (٣٨٤٩)، والترمذي (٣٨٤٩) والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد وغيره.

أَحَدُهُمَا: مَقَامُ الْإِخْلَاصِ، وَهُوَ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ عَلَى اسْتِحْضَارِ مُشَاهَدَةِ اللهِ إِيَّاهُ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِ وَقُرْبِهِ مِنْهُ، فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْعَبْدُ هَذَا فِي عَمَلِهِ وَعَمِلَ عَلَيْهِ، فَهُوَ مُخْلِصٌ للهِ؛ لِأَنَّ اسْتِحْضَارَهُ ذَلِكَ فِي عَمَلِهِ يَمْنَعُهُ مِنَ الِالْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ بِالْعَمَلِ.

وَالثَّانِي: مَقَامُ الْمُشَاهَدَةِ، وَهُوَ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ عَلَى مُقْتَضَى مُشَاهَدَتِهِ للهِ بِقَلْبِهِ، وَهُوَ أَنْ يَتَنَوَّرَ الْقَلْبُ بِالْإِيمَانِ، وَتَنْفُذَ الْبَصِيرَةُ فِي الْعِرْفَانِ، حَتَّى يَصِيرَ الْغَيْبُ كَالْعِيَانِ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ مَقَامِ الْإِحْسَانِ»[(١)].

وكثير من الناس حتى من الصالحين وطلاب العلم يغيب استحضار مراقبة الله له على الدوام، وأنه مطلع عليه في كل شؤونه، ولو استحضر ذلك بصدق في كلّ أوقاته لتغير حاله إلى الأحسن والأكمل، وأحسن ونصح في عبادته وأخلاقه، وأورثه ذلك شدة الخوف منه، وخشيته ورجاءه والتوكل عليه، وملأ حبُّه جميع جوانحه، وانتقل بعد ذلك إلى المرتبة العليّة، وهي أنْ يعبده عَلَى مُقْتَضَى مُشَاهَدَتِهِ للهِ بِقَلْبِهِ.

وقد جاء في «الصحيحين»[(٢)] أنّ موسى والخضر عليهما السلام لما رَكِبا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قَالَ لَهُ الخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ.

فما نسبة القطرة إلى البحر العظيم؟

فهو سبحانه يعلم ﴿مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

---

(١) جامع العلوم والحكم، تحقيق الأرنؤوط (١/ ١٢٦).

(٢) صحيح البخاري (١٢٢)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).

وهــو جَلَّ جَلَالُهُ ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

هذه الإحاطة الدقيقة منه سبحانه تجعلك تداوم على مراقبته، واستحضار قربه، وقربِ فَرَجِه، وكثرةِ عبادته، واجتنابِ معصيته.

فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا.

وإذا بلغ العبد منزلة اليقين: أسْلم أمره لله تعالى، ورضي به، وبما يقدره عليه، حتى إنه لا يكاد يسأل أحدًا أن يدعو له، فلسان حاله: أنا قريبٌ من ربي، وربي قريبٌ مجيب، وقلبي ينبض بحبّه ورجائه.

إلا إذا كان مَنْ طَلَب منه مِن أولياء الله الصالحين فهذا شأنٌ آخر.

ولو ملأتُ عشرات الصفحات لِوَصْفِ هذا الشعورِ لَمَا وفيَّتُ ذلك، وإنما أنقل ما فهمتُ من كلام أهل العلم، وأسأل الله أن يذيقنا طعم اليقين به.



٣ «رضا العبد بربه سبحانه»:

إنّ اليقين بالله تعالى يُثمر رضا العبد بربه تبارك وتعالى، فيرضا به ربًّا ومعبودًا، ويرضا بما يُقَدِّره عليه من مصائب وآلام.

والرِّضَا به ربًّا يتضمّن الرّضا بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَأُلُوهِيَّتِهِ.

«فَالرِّضَا بِإِلَهِيَّتِهِ: يَتَضَمَّنُ الرِّضَا بِمَحَبَّتِهِ وَحْدَهُ، وَخَوْفَهُ، وَرَجَاءَهُ، وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ، وَالتَّبَتُّلَ إِلَيْهِ، وَانْجِذَابَ قُوَى الْإِرَادَةِ وَالْحُبِّ كُلِّهَا إِلَيْهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَالْإِخْلَاصَ لَهُ.

وَالرِّضَا بِرُبُوبِيَّتِهِ: يَتَضَمَّنُ الرِّضَا بِتَدْبِيرِهِ لِعَبْدِهِ، وَيَتَضَمَّنُ إِفْرَادَهُ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالثِّقَةِ بِهِ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَكُونَ رَاضِيًا بِكُلِّ مَا يَفْعَلُ بِهِ.

فَالْأَوَّلُ: يَتَضَمَّنُ رِضَاهُ بِمَا يُؤْمَرُ بِهِ.

وَالثَّانِي: يَتَضَمَّنُ رِضَاهُ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ»(١).

وستجد لرضاك بالله تعالى ثمارًا كثيرة لا تحصى، ومن أعظمها:

أولًا: الاستغناءُ به عن الخلق، فتأنس به سبحانه، وتزهد في تتبع رضا الناس ومدحهم، ولا تكترث من ذمهم ونقدهم، وتشعر بالأمن النفسي، ونفرةٍ من المعاصي وبغض؛ لأنّ القلب إذا امتلأ حبًّا لله، ورضًا به: لم يعد فيه انجذابٌ للمعاصي والشهوات الباطلة.

قال أحد المعاصرين ممن أكرمه الله بالإقبال عليه: كنت في السابق

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ١٧١).

أتمنى ثناء فلان أو فلان من العلماء والوجهاء عليّ، وأتمنى أن يكثر المتابعون لي في مواقع التواصل، وأفرح لو أعاد تغريداتي المبرزون في العلم أو الفضل، وأما الآن، فلم يكن لذلك شأن عندي، ولا أهتم بمدح ولا ذم، مع أني أفرح لو سمعت أحدًا يثني على أعمالي التي فيها نفع للآخرين، لكني لا أسعى لذلك ولا أبحث عنه أبدًا، وهذا مما أراحني وشرح صدري، وخلصني من هموم كثيرة ابتُلي بها محبو المدح وكارهو النقد والذمّ. اهـ.

ومن عرف الله صغر لديه كلّ شيء.

وما أجمل ما قاله بعض السلف: مَنْ ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى ذِكْرًا عَلَى الْحَقِيقَةِ[١] نسي في جنب ذكره كلَّ شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء.

ثانيًا: الرضا بأقداره، حتى لا تكاد تشعر بآلام المصائب التي لا يتحملها أكثر الناس؛ لأنّ الله تعالى إذا علم منك أنك قد رضيت به وعن كلّ ما يقدره عليك: أنزل عليك سكينته عند حلول أقداره المؤلمة عليك؛ بل إنّ بعضهم ـ ونسأل الله أن نكون منهم ـ يشعر بانشراح وطمأنينة غريبة، ويذوق من حلاوتها ما يُنسيه آلام المصيبة، ويكون ديدنه أثناء المصيبة الثناء على الله وحمده وشكره على هذه النعمة التي لا يكاد يشعر بها إلا عند المصائب، فيشعر مع رضاه بعظيم حبّه له تعالى، حيث أيقن أنّ ربه الرحيم الكريم لم يبتله إلا حبًّا لرفعته، وامتحانًا لصبره وصدقه، فيفرح أنه صبر وصدق عند المصيبة، فيزداد حبًّا له على تثبيته له، ولولا تثبيته لَمَا صبر ولا شكر.

---

(١) وهو الذكر بالقلب خوفًا ومحبة وخشية وإنابة وتعظيمًا وإجلالًا، وباللسان تسبيحًا واستغفارًا وتحميدًا وتهليلًا.

قال أحد مَن منّ عليه الكريم بالرضا به: جاء أولادي يومًا وأنا نائم فأيقظوني وهم يبكون، وأخبروني بأنّ ابنتي أُصيبت بمصيبة عظيمة، فأنزل تعالى الله عليّ سكينة عجيبة، فلم أشعر بأيّ قلق ولا ضيق صدر، وجعلت أكثر من حمد الله وشكره، ثم ركبت السيارة وانتظرت زوجتي وابنتي ولم أر موضع الجرح الذي أصابها، وجعلت ألقنهما الاسترجاع، وأطلب منهما الالْتجاء إلى الله تعالى، وأوصيهما بالتَّوكل على الله تعالى، ثم ذهبنا للمستشفى، فأخبرنا الطبيب بأنّ حالتها حرجة، ويجب الذهاب لمستشفى متقدم في الطب في الرياض.

قال: فتوضأت وصليت ركعتين قبل الذهاب للرياض، ودعوت الله كثيرًا لها بالشفاء، وحمدته على حسن قضائه ونعمه عليّ، وكنت في الطريق ألزم الاستغفار وقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وشعرت بالفرح والرضا عن الله؛ لِمَا منّ به عليّ من الصبرِ على هذه المصيبة، ولأنه أنزل على قلبي السكينة والرضا عنه، وجعلت أشكره من أعماق قلبي، ولا أذكر أني حمدته وشكرته مثل ذلك، فهو ﷻ عافاني وأولادي طيلة السنوات الماضية، ولم نصب بمصائب كبيرة.

وجاء في خاطري قول بعض السلف وقد أصيب مصيبة كبيرة: لا أحب أني لم أصب بهذه المصيبة، وكنت حينها أنكر في قلبي هذا، وأقول: هذه مبالغة، والآن عرفت حقيقة هذه العبارة، حيث كان همُّ السلف وغاية مطلوبهم: رضا الله تعالى والجنة، وقد علموا أن المصائب والرضا عن الله تعالى من أعظم أسباب رفعة درجاتهم، وأن الله تعالى قد قدَّر عليهم هذه المصائب لينالوا الكرامة والجنان العالية، والتي لا يمكن أن تنال إلا بها، فشعرت بما يُشابه هذا الشعور، وقلت صادقًا من قلبي:

ما أحبُّ أني لم أصب بما أُصبت به؛ لأني أعلم أن الله تعالى لم يقدِّر ذلك عليّ إلا لحكمة عظيمة، ورحمتِه بي، كيف وقد قال النبي ﷺ: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ شَيْئًا إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ؟**»(١).

ولأني وجدت من الانشراح والسعادة وحمد الله وشكره ورؤية منّته ما لا يخطر على بال، ولم يكن يحصل لي هذا لولا هذه المصيبة. اهـ.

ولَمَّا رجع النبي ﷺ إلى المدينة بمن بقي من أصحابه، بعد هزيمتهم في معركةِ أُحُدٍ، وإثخان العدوّ بهم، وأكثرهم جريح، وقد بلغ منهم الجهد والمشقة نهايته، قال لهم الناس: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

فسار بهم حَتَّى بَلَغَ حَمْرَاءَ الْأَسَدِ، مُرْهِبًا لِلْعَدُوِّ، وكَانَ فِيهِمُ الْمُثْقَلُ بِالْجِرَاحِ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَشْيَ وَلَا يَجِدُ مَرْكُوبًا، وبعضهم يُحْمَلُ عَلَى الْأَعْنَاقِ.

ولك أنّ تتخيل أنّ عدوًّا قويًّا اجتاح بلدًا، فقتل من قتل، وخرب وأفسد، ثم ارتحل، وبعد يوم أو يومين يأتي الخبر بأنه في طريقه إلى هذا البلد مرة أخرى!

فلا شكّ أنّ الناس سيزدادون خوفًا وقلقًا، وذعرًا وخورًا.

فما أعظم هؤلاء الصحابة، الذين لم يثبتوا في هذه الحالة فحسب؛ بل ازدادوا إيمانًا ورضًا!

وكذلك كان حالهم حينما تحزّب الأحزاب لقتالهم، واجتمع عليهم عشرة آلاف، وهم قلة قليلة، قال تعالى واصفًا حالهم حينما رأوا جموع

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٠٢٨٣).

الكافرين الغفيرة: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

فإذا تمكن في قلب المؤمن اليقين بالله، والرضا به وعنه: انقلبت المحن في حقه إلى منح، والمصائب إلى مكاسب، وثبت القلبُ ثبات الجبال في الحالات التي تطيش من شدّتها العقول، وتنخلع من هولها القلوب.

فهذا الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما أُدخل على الخليفة ـ وكانوا هوَّلوا عليه، وقد كان ضَرَب عنق رجلين ـ، وعنده ابن أبي دؤاد ـ وهو الذي حرض على قتل الإمام وتسبَّب في الفتنة ـ، وأبو عبد الرحمٰن الشافعي، فأُجلس بين يدي الخليفة، فنظر الإمام أحمد إلى أبي عبد الرحمن الشافعي ـ برباطة جأش ـ فقال: أيُّ شيءٍ تحفظ عن الشافعي في المسح؟

فقال ابن أبي دؤاد: انظروا! هو ذا يُقَدَّم لضرب عنقه، يناظر في الفقه![1].

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، «عاش حياةً مليئةً بالبذل والتضحية، والجهاد والنضال، وكابد آلام السجن مرارًا وتكرارً، وقد يظنُ من يطّلِعُ على حياتِه ومصائبِه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذه الحياة التي عاشها فيها التعب والشقاء؛ لأنه كان يُجابه دولًا وممالك وحُكَّامًا، وأتباعًا ومتبوعين، وهو وحيدٌ قليل العضد والناصر.

ولكن الحقيقة تقول غير هذا؛ بل إن هذا الشقاء الظاهري، والتعب

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٤٣٣)، تهذيب حلية الأولياء (٣/١٤٧).

والعناء الجسدي، أكْسبَهُ أُنسًا ولذةً لا يعيشها من تنعّم بأحسن النعم الظاهرة، وتلذذ بالمتع الحسية.

فلك أنْ تتخيل أنه وهو محبوسٌ في حَبْسِ الإسكندرية، أرسل رسالةً لأصحابه يقول فيها: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾، وَالَّذِي أُعَرِّفُ بِهِ الْجَمَاعَةَ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَأَتَمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، فَإِنِّي - وَاللهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - فِي نِعَمٍ مِن اللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا فِي عُمْرِي كُلِّهِ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ ﷻ مِنْ أَبْوَابِ فَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ وَخَزَائِنِ جُودِهِ وَرَحْمَتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ بِالْبَالِ، وَلَا يَدُورُ فِي الْخَيَالِ.

وقال وهو في الحبس كذلك: أَنَا فِي نِعْمَةٍ مِن اللهِ سَابِغَةٍ وَرَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ أَعْجِزُ عَنْ شُكْرِهَا.

وقال مرةً وهو في محبسه في القلعة: لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبًا شكرًا على هذه النعمة كنت مقصّرًا.. وأنا بحمد الله لست في شدّة ولا ضيق أصلًا؛ بل في جهاد في دين الله وسبيله ونصر دينه، مثل ما كنت أخرج إلى قازان وأغزو الجبليّة، والجهاد لا بد فيه من الاجتهاد، ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

لم يتذمر من مُرّ ما أصابه، ولم يقل بلسان حاله أو مَقَالِه: كيف أُبتلى بهذا البلاء العظيم، وأنا أدافع عن الإسلام، وأبذل نفسي ووقتي في خدمة الدين، وطاعة رب العالمين.

بل من شدة رضاه عن ربه: انقلب البلاء إلى سعادة لا يستطيع شكرها، ولذةٍ لا يقدر على وصفها(١).

---

(١) عَبْقرِيَّةُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رحمه الله، للمؤلف (ص٢٨ - ٣٣)، جامع المسائل (١٠/ ٢٥١ - ٢٥٨).

ومثال زيادة رضا المؤمن بربه عند المصائب والمحن: كعودِ الطيب الجيّد، لا يزيده الإحراقُ إلا طيبًا.

ولسان حال المؤمن عند المصائب:

تزيدُ قساوةً فأزيدُ صبرًا كعودٍ زادهُ الإحراقُ طيبا

والمؤمن يعلم علم اليقين أنّ ربه لا يقدِّر عليه إلا كلّ خير، ولا يصرف عنه الشيء الذي يريده إلا لمصلحته.

قال عَبد الله بْن مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُشْرِفُ عَلَى الْأَمْرِ مِنَ التِّجَارَةِ أَوِ الْإِمَارَةِ، فَيَقُولُ الله تعالى: اذْهَبْ فَاصْرِفْ عَنْ عَبْدِي هَذَا الْأَمْرَ؛ فَإِنِّي إِنْ أُيَسِّرْهُ لَهُ أُدْخِلْهُ جهَنَّمَ، فَيَجِيءُ الْمَلَكُ فَيُعَوِّذُهُ فَيَصْرِفُهُ عَنْهُ، فَيَظَلُّ يَتَظَنَّى بِجِيرَانِهِ أَنَّهُ سَبَقَنِي فُلَانٌ، دَهَانِي فُلَانٌ، وَمَا صَرَفَهُ عَنْهُ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»(١).

ويرجع باللوم على نفسِه، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله: إن المؤمن إذا استبطأ الفرج وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرّعه، ولم يظهر عليه أثر الإجابة يرجع إلى نفسه باللائمة، وقال لها: إنما أتيت من قبلك، ولو كان فيك خير لأجبت(٢).

قال ابن رجب رحمه الله: وهذا اللوم أحبّ إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنه أهل لما نزل من البلاء، وأنه ليس بأهل لإجابة الدعاء، فلذلك تسرع إليه حينئذٍ إجابة الدعاء وتفريج الكرب، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجله.اهـ(٣).

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص٣٣).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٥).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٥).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: من أراد أن يعلم حقيقة الرضا عن الله عَزَّ وَجَلَّ في أفعاله، وأن يدري من أين ينشأ الرضا: فليتفكر في أحوال رسول الله ﷺ، فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه، رأى أن الخالق مالك، وللمالك التصرف في مملوكه، ورآه حكيمًا لا يصنع شيئًا عبثًا، فسلم تسليم مملوك لحكيم؛ فكانت العجائب تجري عليه، ولا يوجد منه تغير، ولا من الطبع تأفف، ولا يقول بلسان الحال: لو كان كذا! بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح.

هذا سيد الرسل ﷺ بُعث إلى الخلق وحده، والكفر قد ملأ الآفاق، فجعل يفر من مكان إلى مكان، واستتر في دار الخيزران[١]، وهم يضربونه إذا خرج، ويدمون عقبه، وأُلقي السلى على ظهره، وهو ساكت ساكن، ويخرج كل موسم فيقول: «من يؤويني؟ من ينصرني؟».

ثم خرج من مكة، فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر[٢].

ولم يوجد من الطبع تأفف، ولا من الباطن اعتراض، إذ لو كان غيره، لقال: يا رب! أنت مالك الخلق، وقادر على النصر، فلم أذل؟! كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم صلح الحديبية: ألسنا على الحق؟! فلم نعطي الدنية في ديننا؟! ولما قال هذا قال له الرسول ﷺ: «**إني عبد الله، ولن يضيعني**».

فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما: فقوله: «إني عبد الله»: إقرار بالملك، وكأنه قال: أنا مملوك يفعل بي ما يشاء. وقوله: «لن

(١) هي دار الأرقم بن أبي الأرقم، ثم تملكتها الخيزران زوجة الخليفة العباسي محمد المهدي وأم ابنيه موسى الهادي وهارون الرشيد.

(٢) هو: مطعم بن عدي.

يضيعني»: بيان حكمته، وأنه لا يفعل شيئًا عبثًا.اهـ[١].

وتأمل كيف لم يُسمع منه ﷺ كلمة واحدة يلومُ بها الرماة الذين أمرهم يوم أحد بأن يكونوا فوق الجبل، ونهاهم أشد النهي عن النزول، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا، وقال لهم: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَى الْعَدُوِّ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»[٢]، ومع ذلك نزل أغلبهم وتركوا الجبل، فكان ذلك سببًا في هزيمة الجيش، وقتل العشرات من الصحابة، وأذى النبي ﷺ.

والعجيب كذلك: أنه ﷺ لم يذكر هذا الموقف ولو مرة واحدة، فهذا يدل على إيمانه بقضاء الله وقدره، وأنه تعالى ما قدّر ذلك إلا لحكمة، ولو شاء ما حصل الذي حصل، وقد بذل جهده في ترتيب الجيش وأمر الرماة، وعصيانهم لم يحدث إلا بتأويل واجتهاد، رضي الله عنهم.

ثالثًا: إيثارُ رضا الله عز وجل على غيره، «وهو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء والرسل، وأعلاها لأولي العزم من الرسل، وأعلاها لنبينا عليه الصلاة والسلام، فإنه قاوم العالم كله وتجرد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى، وآثر رضا الله على رضا الخلق من كل وجه، ولم يأخذ في إيثار رضاه لومةُ لائم.

هذا وقد جرت سُنَّة الله التي لا تبديل لها: أنَّ مَن آثر مَرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه، ويخذله من جهته،

---

(١) صيد الخاطر (ص٣٢٧).
(٢) رواه البخاري (٣٠٣٩).

ويجعل محنته على يديه، فيعود حامده: ذامًا، ومن آثر مرضاته: ساخطًا، فلا على مقصوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضا الخلق مستحيل؛ بل لا بد من سخطهم عليك، فَلأَنْ يسخطوا عليك وتفوز برضا الله عنك: أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض.

هذا مع أنه إذا آثر رضا الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه[١]. .اهـ.



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٢٨٧).

٤ «الصدق مع الله»:

وإذا بلغ المؤمن منزلة اليقين بالله، والرضا عنه: ارتقى إلى منزلة الصديقين، وليس كلُّ مَن كان عالمًا أو مجاهدًا أو عابدًا فقد عرف الله حقّ المعرفة، ولكنه من صدق مع الله فقد عرفه حقّ المعرفة.

والصدق مع الله؛ يعني: الجد والاجتهاد في العمل له، ورفعة دينِه، وتبليغِ رسالاتِه، بنفسك ومالك، وأن يكون همّك في حياتك هو رضاه وإقامة شعائره، وتقديم ما يُحبّه على محابّك وشهواتك.

والمحب الصادق كما قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: إذا نطق نطق لله وَبِاللهِ، وإن سكت سكت لله، وإن تحرّك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضات الله، فَهُوَ لله وَبِاللهِ وَمَعَ الله. اهـ[(١)].

قال أبو زرعة رَحِمَهُ اللهُ: قلت لأحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ: كيف تخلصت من سيف المعتصم وسوط الواثق؟

فقال لي: «يا أبا زرعة، لو جُعل الصدق على جرح لبرأ»[(٢)].

ولو تأملت فيمن رفعه الله تعالى من أهل العلم والفضل: لرأيت أنَّ من أعظم أسباب رفعتهم وقبول الناس لهم: صدقَهم مع الله تعالى، الذي جرهم إلى أن باعوا أنفسهم وأموالهم وأعراضهم لله تعالى، فلا ينتقمون لأنفسهم، ويبذلون أوقاتهم له ولدينه، ويخشونه حقّ خشيته.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨٩).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/ ٣٢١).

فرفعهم الله تعالى، وأشرب قلوب الناس حبهم بصلاح قلوبهم، لا بكثرة أعمالهم وعلومهم.

وقد قال الله ﷻ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، سيسألهم عن صدقهم مع الله تعالى في الحبّ، والرجاء، والخوف، والإنابة، والتوكّل، والتوحيد، وبذل النفس والمال في سبيله.

قال القاسم بن محمد: كنا نسافر مع ابن المبارك رحمه الله فكثيرًا ما كان يخطر ببالي، فأقول في نفسي: بأيِّ شيءٍ فُضِّل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلي إنَّا لنصلي، ولئن كان يصوم إناَّ لنصوم، وإنْ كان يغزُو فإنا لنغزو، وإن كان يحج إنَّا لنحجّ.

قال: فكنَّا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلةً نتعشَّى في بيتٍ إذ طَفِئ السراجُ، فقام بعضنا، فأخذ السراج وخرج يستصبح فمكث هنيهة، ثم جاءَ بالسّراج، فنظرتُ إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلّت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فُضِّل هذا الرجل علينا، ولعله حين فَقدَ السراج فصار إلى الظُلمة ذكر القيامة[١].

وإنّ عملًا يسيرًا يقوم به الصادق في حال مشاهدته منَّةَ الله عليه، وكمالَ افتقاره إليه، وعدمَ استغنائه عنه في ذرةٍ من ذراته، وقد خالط قلبَه حالُ المحبة، والفرح بالله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه، وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات: خيرٌ وأفضل وأعظم أجرًا من جبالٍ من الأعمال يقوم بها غيره.

فهذا حَارِثَة بْن سُرَاقَةَ رضي الله عنه قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ ـ أي:

---

(١) صفة الصفوة (٣/ ٣٧٩).

لا يُدرَى من رمى به ـ، فقال النَّبِيّ ﷺ لأمّه: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى**». رواه البخاري[١].

فهذا الشابّ الذي قتل وهو صادقٌ في طلب الشهادة والذود عن نبيِّ الأمة ﷺ: أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى من الجنة.

وخلّد الله تعالى ذكر أصحاب الكهف، وأثنى عليهم وعلى صنيعهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

وما هو صنيعهم؟

فرارهم بدينهم، واعتزالُ الناس حينما فسدوا وأشركوا بالله تعالى، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

فلم يبلغوا هذه المنزلة الشريفة بأعمال كثيرةٍ في أوقاتٍ طويلة، وأعمالٍ متعديَة عظيمة، لكنهم بلغوا ما بلغوا بصدقهم مع الله، وكرهِهم للمعاصي والعصاة؛ بعدم مخالطتهم وهم يعصون الله، وهذا غاية مجهودهم، ونهاية قدرتهم.

والصادق ينال أجر الشهادة ولو مات على فراشة، بفضل صدقه في طلبها، لا بعمله، فهو لم يقتل في المعركة.

قال ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**». رواه مسلم[٢].

فالصادق قد حاز مرتبتين: مرتبة الصديقية، ومرتبة الشهادة؛ فإنّ الصادق ـ جعلنا الله من الصادقين ـ ينال أجر الشهادة ولو مات على فراشة، إضافة إلى مرتبة الصديقية التي وصل إليها.

---

(١) (٢٨٠٩).
(٢) (١٩٠٩).

تاللهِ لقدْ سبقَ الْصادقون السُّعاةَ، وهُمْ على ظُهُورِ الْفُرُشِ نائمُونَ، «وَتَقَدَّمُوا الرَّكْبَ بِمَرَاحِلَ وَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ وَاقِفُونَ.

مِنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَلَّلِ تَمْشِي رُوَيْدًا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ

فَلَا يَتَعَنَّى السَّالِكُ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، فَإِنَّهُ وَاصِلٌ وَلَوْ زَحَفَ زَحْفًا، فَأَتْبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ إِذَا قَعَدَتْ بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، قَامَتْ بِهِمْ عَزَائِمُهُمْ وَهِمَمُهُمْ وَمُتَابَعَتُهُمْ لِنَبِيِّهِمْ»(١).

فلا تنظر إلى كثرة عملك وعلمك، ونفعك للناس، ولكن انظر إلى صدقك وإخلاصك، فالخوارج من أكثر الناس عملًا، ولكنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة كما قاله أعلم الناس بهم، وهو رسول الله ﷺ.

وأهل الكلام من المعتزلة والجهمية وبعض المبتدعة من أكثر الناس علمًا، ولكنّ علومهم لم تزدهم إلا ضلالًا وفسقًا وبعدًا.

قال بعضهم ـ وصدق ـ: ليس الشأنُ فيمن يقوم الليل، إنَّما الشأن فيمن ينام عَلَى فراشه ثم يصبح وقد سبَق الركب.

قال ابن القيم رحمه الله: وَلِهَذَا كَانَ أصل أعمال الْقُلُوب كلهَا الصدْق، وأضدادها من الرِّيَاء وَالْعجب وَالْكبر وَالْفَخْر وَالْخُيَلَاء والبطر والأشر وَالْعجز والكسل والجبن والمهانة وَغَيرهَا أَصْلهَا الْكَذِب، فَكل عمل صَالح ظَاهر أَو بَاطِن فمنشؤه الصدْق، وكل عمل فَاسد ظَاهر أَو بَاطِن فمنشؤه الْكَذِب.

وَالله تَعَالَى يُعَاقب الْكَذَّاب بِأَن يقعده ويثبطه عَن مَصَالِحه ومنافعه،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٩، ١٣٨).

ويثيب الصَّادِق بِأَن يوفقه لِلْقِيَام بمصالح دُنْيَاهُ وآخرته، فَمَا استجلبت مصَالح الدُّنْيَا وَالْآخِرَة بِمثل الصدْق، وَلَا مفاسدهما ومضارهما بِمثل الْكَذِب.

فما أنعم الله على عبد بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق، الذي هو غذاء الإسلام وحياته، ولا ابتلاه ببلية أعظم من الكذب، الذي هو مرض الإسلام وفساده. اهـ[1].

ويكفي الصادقين شرفًا أنّ الله تعالى أمر المؤمنين أن يكونوا معهم وفي حزبِهم وطريقِهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾؛ فالْآيةُ دالَّةٌ على فَضْل الصِّدقِ وكمالِ درجتِه.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: حَقٌّ على كلّ مَنْ فَهِمَ عَنِ اللهِ وَعَقَلَ عَنْهُ أَنْ يُلَازِمَ الصِّدْقَ فِي الْأَقْوَالِ، وَالْإِخْلَاصَ فِي الْأَعْمَالِ، وَالصَّفَاءَ فِي الْأَحْوَالِ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَحِقَ بِالْأَبْرَارِ، وَوَصَلَ إِلَى رِضَا الْغَفَّارِ. اهـ[2].

والصادق الذي جاءت النصوص بمدحه وعلوّ قدرِه هو الذي:

١ ـ استقام لسانه، فلا يكذب، ولا يغدر، ولا يخون، ولا يغتاب، ولا يحتقر.

٢ ـ واستقام قلبُه، فلا يتردد في المضيّ في أيّ عمل يكون رضا الرب فيه، ولا يتردد في الكف عن كلّ عمل يكون سخط الله فيه، ولا يكون ذلك إلا إذا امتلأ قلبُه بالإخلاص لله، والحبّ له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخشوع والخضوع له، وإذا حصلت هذه الأمور في قلبه

---

(١) الفوائد (ص١٣٦)، زاد المعاد (٣/ ٥١٧).
(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٩/ ٣٥١).

خرجت منه كلّ الأمراض والآفات التي قلّ من سلم منها، كالكبر والعجب والازدراء والمنّة.

٣ ـ **واستقام فعلُه**، فلا يعمل إلا وفق الكتاب والسُّنَّة، وإذا عمل عملًا أتقنه وأحسنه وأكمله.

هذا هو الصادق حقًّا، ومن أخل بأحدها نقص صدقه بقدر إخلاله.

اللَّهُمَّ اجعلنا من عبادك الصادقين، وحزبك المفلحين.

واعلم أنّ حقيقة الصدق مع الله واحدة، ولكن فروعها تتنوع، فجميع ما قص الله تعالى علينا من قصص الأنبياء والأولياء كانوا صادقين معه، ولذلك أثنى عليهم وذكر مواقفهم وسيرهم، ولكن تنوعت طرائقهم وتعاملاتهم ومظاهرهم، فبعضهم صدع بالحق ولم يبال بما يحدث له في سبيل الله، كإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام، وبعضهم لم يصرح خوفًا على نفسه، كمؤمن آل فرعون، وبعضهم لم يصدع بالحق لا تصريحًا ولا تلميحًا؛ بل اعتزل ونأى بنفسِه، كأصحاب الكهف.

فليس من شروط الصدق مع الله تعالى أن يصدع بالحق دائمًا؛ بل الصدق حقيقته بالقلب، بأنه يعلم الله منه شدة حبّه له ولدينه، وإخلاصه في العمل له، وشدة اتباعه لنبيّه ﷺ بقدر ما يستطيع.



٥ «حبّ الله تعالى»:

وإذا صدقت مع الله ـ **أخي المسلم** ـ، ونويت بصدق وإخلاص أن تبحث عن رضا الله تعالى: فسيُكرمك ويشرّفك الله الكريم الوهاب بحبّك له.

ومحبة الله تعالى نوعان:

أحدهما: محبة العامة، فتُحبّه لأجل إحسانه إليك، وهذه المحبة إذا لم تجذب قلبك إلى محبة الله نفسِه، فما أحببت في الحقيقة إلا نفسَك، وكذلك كلُّ من أحب شيئًا لأجل إحسانه إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه.

وقد جُبِلَت النُّفُوسُ عَلَى حُبّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، لَكِنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ مَحَبَّةُ الْإِحْسَانِ لَا نَفْسُ الْمُحْسِنِ، وَلَوْ قُطِعَ ذَلِكَ لَاضْمَحَلَّ ذَلِكَ الْحُبُّ، وَرُبَّمَا أَعْقَبَ بُغْضًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ للهِ ﷻ.

الثاني: محبة الخاصة، فتُحبّه لذاتِه، ولِمَا هو أهلُه، وهذا حبُّ مَن عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يُعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه حتى جميع مفعولاته؛ إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل؛ ولهذا استحق أن يكون محمودًا على كل حال، ويستحق أن يحمد على السراء، والضراء، وهذا أعلى وأكمل، وهذا حب الخاصة.

وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، حتى لو

انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون[١].

قال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاللهِ مَا عَجَبِي مِنْ يُوسُفَ أَنْ رَاوَدَتْهُ مَوْلَاتُهُ فَاسْتَعْصَمَ، وَأَنْ قَالَتْ لَهُ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فَقَالَ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ فَكَمْ قَالَ هَذَا مَنْ لَيْسَ لَهُ مَقَامُهُ فِي مَعْرِفَتِهِ بِاللهِ وَمُرَاقَبَتِهِ للهِ..

وَإِنَّمَا عَجَبِي بَلْ إِعْجَابِي بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ نَظَرَهُ إِلَى اللهِ أَوْ نَظَرَ اللهِ إِلَيْهِ لَمْ يَدَعْ فِي قَلْبِهِ الْبَشَرِيِّ مَكَانًا خَالِيًا لِنَظَرَاتِ هَذِهِ الْعَاشِقَةِ الَّتِي شَغَفَهَا حُبًّا.اهـ[٢].

لقد امتلأ قلب يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بمحبةِ الله وتعظيمِه والأنس به، واللذة بذكره وبِمُناجاتِه ما أغناه عن محبة هذه العاشقة المقبلة عليه بكامل زينتها وجمالها وسلطانِها، واستولى على قلبه حبُّ الله تعالى، فلا مكان لغير الله في قلبه، ولا يستطيع أحدٌ مزاحمة وجدانه ومشاعره وتوجهه الذي صرفه كلّه لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا كَانَ الْقَلْبُ مُحِبًّا للهِ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ: لَمْ يُبْتَلَ بِحُبِّ غَيْرِهِ أَصْلًا، فَضْلًا أَنْ يُبْتَلَى بِالْعِشْقِ، وَحَيْثُ أُبْتُلِيَ بِالْعِشْقِ فَلِنَقْصِ مَحَبَّتِهِ للهِ وَحْدَهُ.اهـ[٣].

فمن ذاق طعم محبة الله تعالى: لم يبق في قلبه محبّةٌ لغيره، وتعلقّ بغيرِه، وانْصِرافٌ إلى ما سواه[٤].

قال بعض السلف: شبع الأولياء بالمحبة عن الجوع ففقدوا لذاذة

---

(١) يُنظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ٨٤ ـ ٨٥)، (١٠/ ٦٠٩).

(٢) تفسير المنار، للعلامة محمد رشيد رضا (١٢/ ٢٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٥).

(٤) عِبَاراتٌ أَثَّرَتْ عَلَيَّ وغَيَّرَتْ فِيْ حَيَاتِي، للمؤلف (ص٧٣).

الطعام والشراب والشهوات؛ لأنهم تلذذوا بلذة ليس فوقها لذة، فقطعتهم عن كل لذة[١].

«وكلَّما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه: أخرجت منه تألهه لما سواه، وعبوديَّته له.

فَـأَصْـبَـحَ حُـرًّا عِـزَّةً وَصِـيَـانَـةً   عَـلَـى وَجْـهِـهِ أَنْـوَارُه وَضِـيَـاؤُه

فإنه لا شيء أَحبَّ إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلٰهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها، ومميتها ومحييها، فمحبتُه نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن، فليس عند القلوب السليمة، والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية، أحلى، ولا ألذّ، ولا أطيب، ولا أسرّ، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه، والحلاوةُ التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة، والنعيمُ الذي يحصل له بذلك أتمّ من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة، كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله «إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب».

وقال آخر: «إنه ليمر بالقلب أوقات يهتز فيها طربًا بأنسه بالله وحبه له».

وقال آخر: «مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها».

وقال آخر: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا

---

(١) المنتظم (١١/٣٠٢).

عليه بالسيوف»[١].

وإذا امتلأ القلب حبًّا لله، وأنسًا به: سرى ذلك إلى البدن، فلا يجد صاحب هذا القلب للعبادات تعبًا وألَمًا؛ بل تكون خفيفةً لذيذةً عليه.

فتجده يبادر ويُسارع إلى الصلاة قبل النداء.

ويتضوّر جوعًا في النهار، ويظلّ قائمًا وراكعًا وساجدًا في الليلة الظلماء.

ويذكر الله تعالى بالجهر والإسرار.

ويتغنى بتلاوة آياته آناء الليل وأطراف النهار.

ولا يفعلُ ذلك طالبًا للأجر فحسب؛ بل طلبًا للأنس واللذة التي يجدها في عبادة ربّه، وإقباله عليه.

«فمن عرف الله: صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كلُّ شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والإجلال، والمراقبة، والمحبة، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به، والتسليم لأمره»[٢].

وعلامةُ المحبّ الصادق:

١ ـ «أن تكون محبةُ الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحابّ، فإذا تعارض حبُّ الله تعالى وحبُّ غيره: سبق حبُّ الله تعالى حبَّ ما سواه.

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٩٧).

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية رحمه الله (ص٤٠٦).

وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان»(١).

٢ ـ أنّ يغار لله ورسوله، وإذا خلا قلبُه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبة أخلى، فكيف يصحُّ لعبدٍ أنْ يدعي محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتُهكت، ولا لحقوقه إذا ضيعت.

وإذا ترحلت هذه الغيرة من القلب: ترحلت منه المحبة؛ بل ترحل منه الدين، وإن بقيت فيه آثاره، وهذه الغيرة هي أصل الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي الحاملة على ذلك»(٢).

اللَّهُمَّ اجعلنا من المخلِصين المحبين لك، والصادقين في التوجه إليك.

ولابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبارات إيمانية صاغها بروحه قبل قلمه وكأنه يخبر بها عما يجده في نفسه، ولا تجدها عند غيره.

وإليك كلامه هذا، الذي ينبغي أن تتأمله وتكرر قراءته بين الفينة والأخرى.

وسيؤثر على قلبك وإيمانك إن شاء الله.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الإنابة: الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه.

والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة:

فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص٨).

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص٢٧٤).

ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاءِ.

ومنهم المنيب إليه عند الشدائد والضراءِ.

وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه إلى مألوف طبيعي نفساني، قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلى غيره ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له.

فأعلى أنواع الإنابة إنابة الروح بجملتها إليه لشدة المحبة الخالصة الغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم.

وحين أنابت إليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيء عن الإنابة، فإن الأعضاءَ كلها رعيتها وملكها تبع للروح فلما أنابت الروح بذاتها إليه إنابة محب صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه أنابت جميع القوى والجوارح: فأناب القلب أيضًا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار.

وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها، وتحكيمه إياها دون غيرها، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها.

وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن الأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة، وانقادت للأمر خاضعة له وداعية فيه مؤثرة إياه على غيره، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضًا إلى مولاها ورضى بقضائه وتسليمًا لحكمه.

وأناب الجسد بالأعمال والقيام بها فرضها وسننها على أكمل الوجوه.

فإنابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الإنابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من إنابة سنين كثيرة من غيره، فأين إنابة هذا من إنابة من قبله؟

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ، بل هذه روحه منيبة أبدًا، وإن توارى عنه شهود إنابتها باشتغال فهي كامنة فيها كمون النار في الزناد.

وأما أصحاب الإنابات المتقدمة فإن أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب إليه، فهو ينيب ببعضه ساعة ثم يترك ذلك مقبلًا على دواعي نفسه وطبعه. اهـ[(١)].

وذكر رَحِمَهُ اللهُ أن الزهد على أربعة أقسام:

أحدها: فرض على كل مسلم وهو الزهد في الحرام..

الثاني: زهد مستحب، وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات والتفنن في الشهوات المباحة.

الثالث: الزهد في الدنيا جملة، وليس المراد تخليها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفراً منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده..

الرابع: الزهد في نفسك، وهو أصعب الأقسام وأشقها، وأَكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يَلِجُوه..

---

(١) طريق الهجرتين (ص٣٩٣).

وهو نوعان:

أحدهما: وسيلة وبداية، وهو أن تميتها فلا يَبْقى لها عندك من القدر شيء، فلا تغضب لها، ولا ترضى لها، ولا تنتصر لها، ولا تنتقم لها، قد سبَّلْت عِرْضها ليوم فقرها وفاقتها، فهي أهون عليك من أن تنتصر لها، أو تنتقم لها، أو تجيبها إذا دعتك، أو تغضب لها إذا ذُمَّت، بل هي عندك أخس مما قيل فيها..

وهذا وإن كان ذبحاً لها وإماتة عن طباعها وأخلاقها فهو عين حياتها وصحتها، ولا حياة لها بدون هذا البتة.

وهذه العقبة هي آخر عقبة يُشرف منها على منازل المقربين، وينحدر منها إلى وادي البقاءِ ويشرب من عين الحياة، وتَخْلُص روحُه من سجون المحن والبلاء وأسر الشهوات، وتتعلق بربها ومعبودها ومولاها الحق.

فيا قرة عينها به، ويا نعيمها وسرورها بقربه، ويا بهجتها بالخلاص من عدوها، ومصيرها إلى وليّها مولاها ومالك أمرها ومتولي مصالحها.

وهذا الزهد هو أول نَقْدة من مهر الحب، فيا مفلس تأَخر.

والنوع الثاني: غاية وكمال، وهو أن يبذلها للمحبوب جملة، بحيث لا يستبقي منها شيئاً، بل يزهد فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله، قد تعلقت رغبة محبوبه به، فهل يجد من قلبه رغبة في إمساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه؟

فهكذا زهد المحب الصادق في نفسه، قد خرج عنها وسلَّمها لربه، فهو يبذلها له دائماً.

وجميع مراتب الزهد المتقدمة مبادٍ ووسائل لهذه المرتبة، ولكن لا يصح إلا بتلك المراتب.

فمن رام الوصول إلى هذه المرتبة بدون ما قبلها فمُتَعَنٍّ مُتَمَنٍّ، كمن رام الصعود إلى أعلى المنارة بلا سلَّم.اهـ[١].



(١) طريق الهجرتين (ص٥٣٩ ـ ٥٤٨).

٦ «لا حياة أحسن وأكمل من الحياة التي يعيشها المحبون لله»:

الله تعالى وعد من عمل صالحًا بأن يشرح صدره، ويصلح باله، ويحييه حياة طيبة، ويزيده هدى وإيمانًا، ويقينًا ومحبة وتوكلًا، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

ومن جاهد نفسه في طلب العلم والعمل وقيام الليل والصيام وتلاوة القرآن وحفظه: سيجد نفسه تزداد مع الأيام إقبالًا على الله تعالى، وقوة وتحملًا على العبادة، لم يكن يستطيع قبل ذلك أن يفعل ربعها.

وإذا وفَّقك الله تعالى للطاعة والعبادة سيأتي عليك يوم تقول فيه: هل هناك حياة أحسن وأكمل من الحياة التي أعيشها؟

وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: اعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جعل فِعْلَ الْعَبْدِ سَبَبًا مُفضِيًا إلى آثَار مَحْمُودَةٍ أَو مَذْمُومَةٍ.

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ: مِثْلُ صَلَاةٍ أَقْبَلَ عَلَيْهَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، وَأَخْلَصَ فِيهَا وَرَاقَبَ، وَفَقِهَ مَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ مِن الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، يَعْقُبُهُ فِي عَاجِلِ الْأَمْرِ نُورٌ فِي قَلْبِهِ، وَانْشِرَاحٌ فِي صَدْرِهِ، وَطُمَأْنِينَةٌ فِي نَفْسِهِ، وَمَزِيدٌ فِي عِلْمِهِ، وَتَثْبِيتٌ فِي يَقِينِهِ، وَقُوَّةٌ فِي عَقْلِهِ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن قُوَّةِ بَدَنِهِ، وَبَهَاءِ وَجْهِهِ، وَانْتِهَائِهِ عَن الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَإِلْقَاءِ الْمَحَبَّةِ لَهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَدَفْعِ الْبَلَاءِ عَنْهُ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْلَمُهُ - سبحانه - وَلَا نَعْلَمُهُ.

ثُمَّ هَذِهِ الْآثَارُ الَّتِي حَصَلَتْ لَهُ مِن النُّورِ وَالْعِلْمِ وَالْيَقِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ: أَسْبَابٌ مُفْضِيَةٌ إلَى آثَارٍ أُخَرَ مِن جِنْسِهَا وَمِن غَيْرِ جِنْسِهَا أَرْفَعُ مِنْهَا، وَهَلُمَّ جَرًّا.

وَلِهَذَا قِيلَ: إنَّ مِن ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا، وَإِنَّ مِن عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا.

وَكَذَلِكَ الْعَمَلُ السَّيِّئُ مِثْلُ الْكَذِبِ ـ مَثَلًا ـ: يُعقبُ صَاحِبهُ فِي الْحَالِ ظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، وَقَسْوَةً وَضِيقًا فِي صَدْرِهِ، وَنِفَاقًا وَاضْطِرَابًا، وَنِسْيَانَ مَا تَعَلَّمَهُ، وَانْسِدَادَ بَابِ عِلْمٍ كَانَ يَطْلُبُهُ، وَنَقْصًا فِي يَقِينِهِ وَعَقْلِهِ، وَاسْوِدَادَ وَجْهِهِ، وَبُغْضَه فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَاجْتِرَاءه عَلَى ذَنْبٍ آخَرَ مِن جِنْسِهِ أَو غَيْرِ جِنْسِهِ، وَهَلُمَّ جَرًّا، إلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ. اهـ(١).

وبلوغ الغاية والكمال في عبادة الله تعالى من صلاة وصيام وتلاوة قرآن وتدبّره والعمل به: لا بد له أمرين:

الأمر الأول: شدة صبر ومجاهدة وحرص.

فالعبد القائم بما أمر به: «لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات»(٢).

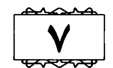
والأمر الثاني: زمن طويل مليء بالتضحيات.

وهذان الأمران هما من أعظم أسباب وصول أهل الدنيا لدنياهم، كمنصب الإمارة والوزارة والتجارة والمراتب العالية في الجامعات والطب والهندسة وغيرها، فلم يصل أحد منهم إلى ما وصل إليه إلا بعد زمن طويل من الدراسة والمذاكرة والعمل، لا يقل عن عشرين عامًا، وشدة حرص وصبر وبذل مال وسفر وتعب واحتمال للصعاب.

ومنصب العبادة والعلم والعمل به والدعوة إليه أعظم المناصب وأشرفها، فلن يحصل أحد على الكمال فيها إلا بهذين الأمرين.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧)، جامع المسائل (٩/ ١٠٦).
(٢) تفسير السعدي (١/ ١٨٥).



«سرُّ شدّةِ محبة الأولياء والصالحين لله تعالى»:

مما لا ريب فيه أنّ من علم علمًا مجملًا عن رجل فيه خصال حميدة شريفة، فإنه سيحبّه محبة عاديّة، فإنّ أحاط بتفاصيل خصاله وصفاته التي قلّ من اتصف بها، فإنّ حبّه وإعجابه به سيزداد.

ولله المثل الأعلى، فإنّ غالب الخلق لم يعلموا عن الله تعالى إلا علمًا مجملًا، فحُرموا لذة حبّه، وأنس معرفته.

وأما الأولياء والصالحون العالمون العاملون فقد علموا عن الله تعالى علمًا مفصلًا، وذلك بكثرة التفكر في مخلوقاته، وتدبّر كتابه، وتلمس أسرار شرعه، وحِكَم أوامره ونواهيه، فوقفوا على عظمة الخالق ﷻ، وكماله وإحسانه وبرّه، فأحبوه حبًّا ملك قلوبهم، وقدموه على أنفسهم وأموالهم وأهليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الحبّ يتبع الشعور، فإذا شعر بالحق مجملًا أحبَّه مجملًا، وإذا شعر به مفصلًا أحبَّه مفصلًا. اهـ[١].



(١) جامع المسائل لابن تيمية ط. عالم الفوائد ـ المجموعة السادسة (٦/ ١٤١).

٨ «استيلاء ذكرِ الله تعالى على القلب واللسان»:

إذا تمكن حبّ الله تعالى في قلبك: ستحبّ ذكر الله تعالى وتسبيحه وحمده بقلبك ولسانك، وسيسري ذكرُه في عروقك؛ فإنّ المحبّ لا يغفل عن ذكر محبوبه، وهذا هو الذكر الذي جاء مدحه في القرآن والسُّنَّة، والثناء على أهله.

وقد ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ**». رواه مسلم[١].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: هذه الكثرة المذكورة هنا هي المأمور بها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، وهذا المساق يدلّ على أن هذا الذكر الكثير واجب، ولذلك لم يكتف بالأمر حتى أكده بالمصدر، ولم يكتف بالمصدر حتى أكده بالصفة، ومثل هذا لا يكون في المندوب.

وظهر أنه ذكرٌ كثير واجب، ولا يقول أحدٌ بوجوب الذكر باللسان دائمًا وعلى كلّ حال، كما هو ظاهر هذا الأمر، فتعيَّن أنْ يكون ذكرَ القلب، كما قاله مجاهد، وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ليس شيءٌ من الفرائض إلا وله حال ينتهي إليه إلا ذكر الله.

ولم يقل هو ولا غيره ـ فيما علمناه ـ أنَّ ذكر الله باللسان يجب على الدوام، فلزم أنه ذكر القلب. .

---

(١) (٢٦٧٦).

وأصل الذكر: التنبُّه بالقلب للمذكور، والتيقُّظ له، ومنه قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾؛ أي: تذكروها، وقوله ﷺ: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها**»؛ أي: إذا تذكرها بقلبه.

وهو في القرآن كثير، وسمّي القول باللسان ذكرًا؛ لأنَّه دلالةٌ على الذكر القلبي، غير أنه قد كثر اسم الذكر على القول اللساني حتى صار هو السابق للفهم، وأصلٌ مع الحضور والمشاهدة.اهـ(١).

وبهذا التحقيق البديع يزول إشكال يرد على بعض الناس، وهو أنه جاءت أحاديث صحيحة في تفضيل ذكر الله على سائر الأعمال الصالحة، كقول النبي ﷺ: «**أَلَّا أُنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ والوَرق، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**» قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**ذِكْرُ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

والمجاهد في سبيل الله أفضل من القاعد الذاكر الله كثيرًا بلسانه وقلبه، مع قدرته على الجهاد، والنصوص في ذلك متوافرة، فبيّن القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ ذكر الله ليس مقتصرًا على التسبيح والتهليل ونحوه، ولو تواطأ القلب مع اللسان.

بل يشمل ذكر عظمة الله، ورحمته، وقوته، وكبريائه، وإحاطته، واطلاعه، وتوحيده، وأسمائه وصفاته على الدوام، ومن فعل ذلك: ملأ وقته طاعة وعبادة، وحفَّزه ذلك على العمل ولا بدّ، وبذل الغالي

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٧ ـ ١٠).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٧٥٢٥)، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وصححه الألباني.

والنفيس في إرضاء مَن لا يفارق ذكره قلبَه، وسيُرخص في سبيله نفسه وماله.

فإذا خلوت: ذكرت اطلاعه عليك فازددت تعظيمًا له، وحذرًا من معصيته.

وإذا مرضت: ذكرت أنه الشافي، فاطمأن قلبك به، وسألته شفاءك.

وإذا خفت من أحد: ذكرت قدرته وعزَّته، وأنّ الخلق تحت مشيئته، فهربت إليه، وركنت إليه، واستجرت به، وخفت منه لا من غيره.

وإذا حصلت على شيء تطلبه؛ كانتصارك على عدوّك، أو ربحك في تجارتك، أو شفائك من مرضك: ذكرت أنّ هذا لم يحصل إلا بتوفيق الله لك، وتيسير الأسباب لك، فحمدته وشكرته، وأرجعت الفضل له، لا لقدرتك وذكائك.

وهكذا.

ومن الأدلة على أنّ المقصود بالذكر: التنبُّه بالقلب للمذكور والتيقُّظ له: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾، فمن ذكر الله تعالى بلسانه وقلبُه غافلٌ، فليس بذاكرٍ لله تعالى على التمام.

فلا بد للقلب من ذكر الله، كما لا بد للسان من ذكر الله.

والذكر ضد النسيان والغفلة، تقول: ذكرت حاجتي؛ أي: استحضرتها بقلبي بعد نسياني، ومنه قوله في السبعة الذين يظلهم الله في ظلّه: «**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»، فهذا بلا شك ذكر الله بقلبه ولو لم يتكلم بلسانه.

وإنما شُرع الذكر باللسان ليتذكر القلب، فإذا ذكر المسلم ربه بلسانه، وقلبه غافلٌ: فإنه لم يأت بمقصود بالذكر، فالله تعالى لم يشرع لنا حركات ظاهرة لمجرد تحريك الأعضاء بلا حكمة؛ بل شرعها ليتحرك القلب بحركتها، فتُثمر الخشوع والطمأنينة وحبّ الله والإنابة إليه.

وبهذا نفهم المقصود بذكر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: بتوحيده، وتعظيمه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وخشيته على الدوام.

فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته؛ لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره.

وإذا حصل هذا في القلب اطمأن وسكن وانشرح، فسرى هذا إلى الأركان، فلهج بذكر الله؛ لأنّ الحبيب لا يفتر عن ذكر محبوبه، وانشغل البدن بعبادة سيّده ومحبوبه ووليّه تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن العبد يحس من قلبه فقرًا ذاتيًّا إلى ذكره وعبادته، غير فقره إليه من جهة إعطائه سُؤلَه، وجلب المنافع له.

فالقلوب فُطِرَتْ على الصحة، كما قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[1]، فهي مع السلامة لا تطمئن إلا بذكر الله، ولا تسكن إلا إليه، ولا تتألَّه إلا إياه.

وافتقارها إلى معرفته وذكره وعبادته لا يشبهُه شيءٌ من الأشياء.

فإذا قلنا: كافتقار الجائع إلى الطعام، والعطشان إلى الماء: كان

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.

ذلك كله تمثيلًا ناقصًا. اهـ(١).

«وكلما قويت المعرفة، صار الذكر يجري على لسان الذاكر من غير كلفة، حتى كان بعضهم يجري على لسانه في منامه: الله الله، ولهذا يلهم أهل الجنة التسبيح، كما يلهمون النفس، وتصير «لا إله إلا الله» لهم، كالماء البارد لأهل الدنيا.

إذا سمع المحب ذكر اسم حبيبه من غيره زاد طربه، وتضاعف قلقه.

إذا سمعت باسم الحبيب تقعقعت مفاصلها من هول ما تتذكر

ذكر المحبين على خلاف ذكر الغافلين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

الذكر لذة قلوب العارفين، قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

قال مالك بن دينار رحمه الله: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله ﷻ.

المحبون يستوحشون من كل شاغل يشغل عن الذكر، فلا شيء أحب إليهم من الخلوة بحبيبهم.

فإذا قوي حال المحب ومعرفته، لم يشغله عن الذكر بالقلب واللسان شاغل، فهو بين الخلق بجسمه، وقلبه معلق بالمحل الأعلى.

جسمي معي غير أن الروح عندكم فالجسم في غربة والروح في وطن

وهذه كانت حال الرسل والصديقين»(٢).

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية (٦/ ١٢٢).

(٢) جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط (٢/ ٥١٨ ـ ٥٢٤).

ومتى وصل الإنسان لهذه المرحلة: فقد قرب من حبّ الله له، قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: من الأعمال التي توصل إلى محبة الله تعالى وهي من أعظم علامات المحبين: كثرة ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ بالقلب واللسان. اهـ[١].

وذكرُ الله من أوكد الأعمال التي لا ينبغي للمسلم أن يفتر عنها، قال محمد بن كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: لَوْ رُخِّصَ لِأَحَدٍ فِي تَرْكِ الذِّكْرِ لَرُخِّصَ لِزَكَرِيَّا بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾، وَلَرُخِّصَ لِلرَّجُلِ يَكُونُ فِي الْحَرْبِ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾. اهـ[٢].

وسُمِّيَ القرآن بِالذِّكْرِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾؛ «لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ تَذْكِيرَ النَّاسِ بِمَا هُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهَا مِنْ حُسْنِ السُّلُوكِ، ثُمَّ تَذْكِيرَهُمْ بِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ التَّكَالِيفِ»[٣].

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَيُطْلَقُ - أي: الذكر - عَلَى النُّطْقِ بِاسْمِ الشَّيْءِ الْخَاطِرِ بِبَالِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ الشَّأْنَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَنْطِقُ بِاسْمِ الشَّيْءِ إِلَّا إِذَا خَطَرَ بِبَالِهِ. اهـ[٤].



(١) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص١٣٠).
(٢) تفسير القرطبي (٥/ ١٢٥).
(٣) التحرير التنوير (٢٨/ ٣٣٧).
(٤) المصدر السابق (١/ ٤٥١).

٩ «حسنات الأبرار سيئات المقربين»:

وإذا بلغ المؤمن منزلة اليقين، ورضي بالله تعالى، وصدق معه، وأحبّه حبًّا يطغى على جميع محابّه، وذكره على الدوام بقلبه ولسانِه: أصبح من المقربين، الذين صدقوا الله رب العالمين، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لإعلاء هذا الدين، وتقربوا إلى الله تعالى بأحسن القربات، وتسابقوا إليه بأفضل الطاعات، ولم يفتروا عن ذكره وشكره وعبادته آناء الليل وأطراف النهار، حتى تكون سيئاتُهم هي صالحَ حسنات الأبرار.

كما قال بعض العلماء: حسنات الأبرار سيئات المقربين[(١)].

ومعنى هذه العبارة: أَن الْأَبْرَار يقتصرون على أَدَاء الْوَاجِبَات وَترك الْمُحرمَات مع شيء من التوسع في المباحات، وشيءٍ من النوافل والمستحبات، وَهَذَا الاقتصار يُعتبر سَيِّئَة فِي طَرِيق المقربين، وَمعنى كَونه سَيِّئَة: أَنْ يُخرج صَاحبه عَن مقَام المقربين السابقين الذين مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾، قال ابن كثير رحمه الله: فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّابِقِينَ هُمُ الْمُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ كَمَا أُمِرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٣٣]، وَقَالَ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الْحَدِيدِ: ٢١]، فَمَنْ سَابَقَ في هَذِهِ الدُّنْيَا

---

(١) ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في عدد من كتبه وساقها مستشهدًا بها، وقال ابن القيم رحمه الله: ولا ريب أن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

مختصر الفتاوى المصرية (ص١٠٧)، مجموع الفتاوى (١١/ ٤١٥)، مدارج السالكين (٢/ ٢٨٥).

وَسَبَقَ إِلَى الْخَيْرِ، كَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْكَرَامَةِ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ.اهـ.

فالمقربون يطمعون أن ينالوا أعلى المنازل في دار الكرامة.

فاقتصارهم على أَدَاء الْوَاجِبَات وَترك الْمُحرمَات مع شيء من التوسع في المباحات، وشيء من النوافل والمستحبات: يحرمهم درجات المقربين السابقين، وَذَلِكَ مِمَّا يسوء من يُرِيد أَن يكون من المقربين، فَكل مَن أحبَّ شَيْئًا وَطَلَبه إِذا فَاتَهُ محبوبه ومطلوبه سَاءَهُ ذَلِك، فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الْوَاجِبَات والمستحبات القليلة، لَا يتوبون من نفس الْحَسَنَات الَّتِي يعْمل مثلهَا الْأَبْرَار؛ بل يتوبون من الاقتصار عَلَيْهَا، وَفرق بَين التَّوْبَة من فعل الْحسن وَبَين التَّوْبَة من ترك الْأَحْسَن والاقتصار على الْحسن[1].

فلو اقتصر البرّ على صوم الفرض والنوافل المعينة، كالست من شوال، وعرفة ونحوها: لكان هذا من السيئات عند المقربين، حيث يصومون مع الفرض والنوافل المعينة: النوافل المطلقة، كيوم الاثنين والخميس.

ويرون أنهم قد قصروا في حق الله، وقصروا في طلب أعلى الدرجات، فيستغفرون الله من نقص همتهم، وتفريطهم.

ولو اقتصر البرّ على صلاة الفرض والسنن الرواتب وقيام نصف ساعة من آخر الليل: لكان هذا من السيئات عند المقربين، حيث يصلون مع ذلك النوافل المطلقة، ليلًا ونهارًا، ويقومون من الليل ساعتين أو ما

---

(١) يُنظر جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٢٥١).

يقاربها، ولو أنهم لم يقوموا ليلة إلا أقل من ساعةٍ لقاموا مستغفرين، وقد ضاقت صدورهم، والبرّ يرى أنه قد عمل عملًا عظيمًا.

ولو اقتصر البرّ على ختم القرآن في الشهر مرةً بلا عناية بالتدبر ونية العمل بكل ما في القرآن: لكان هذا من السيئات عند المقربين، حيث يختمون القرآن في الشهر مرةً على أقل تقدير، بتدبر وخشوع وتأمل ونية للعمل، ويختمون مرتين على الأقل مراجعةً وضبطًا لحفظهم.

ولو صلى البرّ صلاة لم يشرد فيها ذهنُه وجاهد نفسه في حضور قلبه: لكان هذا من السيئات عند المقربين، حيث إنهم إذا قاموا إلى الصلاة أخذوا قلوبهم ووضعوها بين يدي ربهم ﷻ ناظرين بقلوبهم إليه، مراقبين له، ممتلئين من محبته وعظمته، كأنهم يرونه ويشاهدونه، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينهم وبين ربهم، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قرير العين به، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ.

ولو جاهد البرّ نفسه على كثرة الأوراد والأذكار، وجاهد نفسه على التفكر والتأمل في الكون وفيما يقرأ: لكان هذا من السيئات عند المقربين، حيث تكون دواعي قلوبهم وجواذبه منساقة إلى الله طوعًا، ومحبة، وإيثارًا، كجريان الماء في منحدره، وهذه حال المحبين الصادقين؛ فإن عبادتهم طوعًا ومحبة ورضا، ففيها قُرَّة عيونهم، وسرور قلوبهم، ولذة أرواحهم.

ولا يسوقون أنفسهم إلى الله كرهًا كالأجير المسخر المكلف.

ولا يفارق ذكر الله وعظمته وحبه والإقبال عليه قلوبهم، فهم في ذكر لله في جميع حالاتهم.

ولو جاهد البرّ نفسه على أن يقوم إلى الصلاة إذا سمع النداء: لكان هذا من السيئات عند المقربين؛ فإن قلوبهم معلقة في المساجد، يتململون ـ ولو كانوا عند الناس أو في بيوتهم ولو كانوا في عبادة كقراءة القرآن أو طلب العلم ـ فإذا بقي على الأذان نصف ساعة أو ربع ساعة خرجوا من بيوتهم قائلين بلسان الحال، أو المقال، أو كليهما: وعجلت إليك رب لترضا، متطيبين بأحسن أنواع الطيب عندهم، ذاكرين الله في الطريق إلى المسجد.

ولو سمع النداء وهو في بيته أو محله لضاق صدره وشعر أنه قد قصّر وتأخر كثيرًا وغفل عن الصلاة.

وأعرف من أذن المؤذن يومًا وهو في بيته ففزع وقام من فوره مستغفرًا من غفلته.

ولو جاهد البرّ نفسه على عدم ارتكاب معصيةٍ ظاهرة: لكان هذا من السيئات عند المقربين، فإنهم يجاهدون أنفسهم على بذل مهجهم وأموالهم وأوقاتهم في سبيل الله وتبليغ رسالاته.

ولو جاهد البرّ نفسه على عدم تضييع وقته فيما لا ينفع: لكان هذا من السيئات عند المقربين، فهم يرون أنَّ من أعظم الحسرات أن يمرّ يوم لم يستفيدوا فيه علومًا تنفعهم، وطاعات تقربهم إلى مولاهم، فهمهم أعلى من كونهم يهتمون بألا تضيع أوقاتهم فيما لا ينفع؛ بل هم يتمنون أن تزيد ساعات الليل والنهار ليتزوَّدوا من العلم والعمل والدعوة إلى الله ونفع المسلمين.

اللَّهُمَّ اجعلنا من المقربين يا رب العالمين.

١٠ «حبّ لقاء الله تعالى»:

إذا ملأ حبُّ الله تعالى قلبك، وغمر جوارحك، وسلب لبّك، وذقت حلاوة وطعم الإيمان، وبلغت مرتبة الإحسان: ستتوق نفسك إلى النعيم المقيم، الذي ليس بعده ولا فوقه نعيم، وستقول بصدق: (اللَّهُمَّ إني أحب لقاءك فأحبّ لقائي).

فإنّ المؤمن الصادق كلما تذكر أنّ ما بين موته وبين لقاء ربه وخالقه البرّ الرحيم، ودخول الجنة، ولقاء نبيه وحبيبه محمدٍ ﷺ إلا مفارقة روحه لجسده: هان عليه أمر الموت، ولولا النهي الوارد في ذلك لتمنى الموت، فأهلا بالموت الذي يدنيه من لقاء ربه، ودخول الجنة.

وصدق ابن القيم رحمه الله: كلما صح القلب من مرضه ترحَّل إلى الآخرة، وقرب منها، حتى يصير من أهلها، وكلّما مرض القلب واعتلّ آثر الدنيا واستوطنها، حتى يصير من أهلها. اهـ[١].

وما أجمل ما قاله الغزالي رحمه الله: إذا علم ـ المؤمن ـ أنه لا وصول إلّا بالارتحال عن الدنيا ومفارقتها بالموت، فينبغي أن يكون محبًّا للموت.

وأما من كره الموت، فقد يكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى، ولا يبعد أن يكون له مع حب الأهل طرفٌ من حب الله؛ فإن الناس متفاوتون في الحب.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٧١).

وقد يكون العبد في ابتداء مقام المحبة، وليس يكره الموت، وإنما يكره عجلته، قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدل على ضعف الحب، وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره، ويعد له أسبابه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلًا.

وعلامته: الدأب في العمل، واستغراق الهمّ في الاستعداد.اهـ[١].

كيف لا يحبّ المؤمن لقاء الله تعالى، وقد ثبت في «الصحيحين»[٢] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ، لَهُ عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ، يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدَ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى**».

فالمؤمن الذي عمل الطاعات، واجتنب المعاصي والموبقات، إذا مات رأى من حين موته من ربه الكرامات، وأصناف النعيم والخيرات، حتى إنه لا يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا منذ خلقها الله إلى زوالها، بما فيها من ذهب، وفضة، وأموال، وأنهار، وقصور، ونساء، وبساتين، إلا الشهيد؛ فإنَّه لا يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا لينال أجر الشهادة؛ لِمَا رأى من الكرامات بسببها.

كيف لا يحبّ المؤمن لقاء الله تعالى، وقد ثبت في «الصحيحين»[٣] كذلك أَنَّ آخِر مَنْ يَدْخُل الْجَنَّة يُعْطَى مِثْل الدُّنْيَا وَعَشَرَة أَمْثَالهَا!

وكم يتأثر المؤمن من هذا الحديث العظيم، حيث يستشعر نعيم

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٣١).

(٢) البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم (١٨٧٧).

(٣) البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦).

الجنة، ومدى اتِّسَاعِها وكِبرها، وأنّ السموات السبع بأفلاكها ونجومها وكواكبها والأرضين السبع كلها إنما هي عرض الجنة، فكيف بطولِها وارْتفاعِها؟

وإذا كان آخر من يدخل الجنة هذا نعيمه وملكه، وهو الذي قد أفرط في الدنيا في المعاصي والذنوب والتقصير، فكيف بأصحاب اليمين، والسابقين المقربين؟ ما هو ملكهم، وما هو نعيمهم؟

قال بعضهم: «المؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية، ومن النعمة إلى المنعم، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب». اهـ.

وتأمّل كثيرًا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

استشعر تلك اللحظات التي تسمع فيها نداءَ ملائكةِ الله تعالى لك بهذه البشارة العظيمة عند موتك، حتى تكاد تشتاق للموت الذي يقربك من سماع هذه البشارة.

وتعلّقك بالآخرة ومحبتك لله ﷻ وللقائه يُورثك أمرين:

الأول: قصر الأمل، حتى إنك تكاد ترقب الموت وتستعدّ له كل يوم.

وإذا تفكرت في جنة الله، ولذة رؤيتِه، ولطفه وإحسانه: أحببت الموت الذي يدنيك من لقائه والقرب منه، ودخول جنته.

ولا يمر عليك يوم إلا صليت صلاة مودّع، ولا يكن في قلبك

سوى لذة محبة لقائه، ولا يتعلق قلبك بشيء من الدنيا، لا أهل ولا مال، وفوِّضْ أمر أهلك وأولادِك إليه سبحانه، والمال أهون عليك من أنْ تتعلق به.

الثاني: الزهد في الدنيا وعدم تعلّقك بها وبزخرفها ومدّ عينيك إلى متاعها، ولا تجعل شيئًا من زخرف الدنيا وجمالها يثيرك ويستهويك، إلا ما كان من جمال صنع الله تعالى في خلق الكون، فإنك تتعبد لله بالتفكر، وتحمده على نعمة العافية والسعادة وانشراح الصدر.

والدنيا تعملُ في أهلِها المفتونين بها أشدّ من عملِ الساحرِ بالمسحور؛ لأنها تسحرهم بخدعها، وتكتمهم فتنتها، فتدعوهم إلى الحرص عليها والتنافس فيها، والجمع لها والمنع، حتى تفرق بينهم وبين طاعة الله تعالى، ويتقاتل الإخوان لأجلها، ويتقاطع الأحباب لحبّهم لها، وتفرق بينهم وبين رؤية الحق ورعايته، وتأخذ بقلوبهم عن الله، وعن القيام بحقوقه، وعن وعده ووعيده.

وسحر الدنيا: محبتُها وتلذذُك بشهواتها، وتمنيك بأمانيها الكاذبة، حتى تأخذ بقلبك وعقلِك، وتنشغل بها وهي فانية عن الباقية، وتصدّك بزخارِفها عما خُلِقْتَ لأجله، فما هي إلا أيام حتى يطرحك أهلها في أرضها، فتواجه مصيرك، فيا لها من ساحرة قلّ من نجا منها، وتخلّص من شرّها.

وما أجمل ما قال الرافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في ذمّ التعلّق بالدنيا: أفٍّ لهذه الدنيا! يحبها من يخاف عليها، ومتى خاف عليها خاف منها، فهو يشقى بها ويشقى لها، ومثل هذا لا يكاد يطالع وجه حادثة من حوادث الدهر إلا خيل إليه أن التعاسة قد تركت الناس جميعًا وأقبلت عليه

وحده. اهـ[١].

ولقد قال الأديب عبد الكريم الجهيمان (١٣٣٠ ـ ١٤٣٣هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو الذي عُمّر أكثر من مائة عام، خبر فيها الحياة وعاش تجاربها وأهلها، وقد لخّص رأيه في هذه الحياة وأهلها الذين كانت لهم المكانة والشهرة في زمنٍ ما، فقال بعد أن جاوز المئة: شاهدت أشخاصًا كانت لهم صولة وجولة ودولة، وهالة من العظمة، شاهدتهم في أوج عزهم، ثم شاهدتهم في آخر حياتهم: فاحتقرت هذه الحياة؛ لأنَّ نتيجتها كلها أحلام وخيالات، ونهايتها الموت، ثم يذهب الواحد، ويترك الأموال والأولاد والحياة وكل ما يملك، يذهب بخرقة!اهـ.

وما أجمل وأبلغ قول الشاعر وهو يبيّن حقيقة الدنيا:

لِدُوا لِلْمَوْت وَابْنُوا للخراب   فكلكم يصير إِلَى تُراب[٢]

وقول الآخر:

أَمْوَالُنَا لِذَوِي المِيرَاثِ نَجْمَعُها   وَدُورُنا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيها

ومما يزيد العاقل زهدًا في الدنيا ومتاعها: نهي الله تعالى لنبيه ﷺ عن مدّ عينيه إلى ما متع الله به أهل الكفر من زخارف الدنيا فقال سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

---

(١) المساكين (ص٢٣).

(٢) واللام في «للْمَوْت» و«للخراب» تسمَّى لام العاقبة ولام المآل، والمعنى: لدوا وتكاثروا فمصيركم الموت، وابنوا وشيدوا كما تشاؤون فمصير بنائكم الخراب، فالعاقل يصرف همّه فيما ينفعه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وما مثل الإنسان في هذه الحياة القصيرة الفانية إلا «كَعَبْدٍ أَرْسَلَهُ سَيِّدُهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى غَيْرِ بَلَدِهِ، فَشَأْنُهُ أَنْ يُبَادِرَ بِفِعْلِ مَا أُرْسِلَ فِيهِ، ثُمَّ يَعُودَ إِلَى وَطَنِهِ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ غَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ»(١).

فما أعظم حسرة الفوت، على من خسر ما ربحه المتيقّظون بعد الموت.



---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٣٤)، التعيين في شرح الأربعين، للطوفي الحنبلي (المتوفى: ٧١٦هـ): (٣٣٠).

«مسألة: حكم تمني الموت حبًا في لقاء الله مع حسن العمل؟»:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾، هذه الآية تشير إلى جواز تمني الموت لمن اجتهد في إحسان العمل وأحبّ لقاء الله، وقد ذهب إلى الأخذ بظاهر الآية كثير من المفسرين، كالقرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: لَمَّا ادَّعَتِ الْيَهُودُ دَعَاوَى بَاطِلَةً حَكَاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، وَقَالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أَكْذَبَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَلْزَمَهُمُ الْحُجَّةَ فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾؛ يَعْنِي: الْجَنَّةَ، ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾ فِي أَقْوَالِكُمْ؛ لِأَنَّ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَانَ الْمَوْتُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا، لِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، وَيَزُولُ عَنْهُ مِنْ أَذَى الدُّنْيَا، فَأَحْجَمُوا عَنْ تَمَنِّي ذَلِكَ فَرَقًا مِنَ اللهِ لِقُبْحِ أَعْمَالِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِكُفْرِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، وَحِرْصِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ الْحَقِّ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾؛ تَحْقِيقًا لِكَذِبِهِمْ.

واختاره من أهل العلم: ابن جرير[(١)] وابن عثيمين رحمهما الله.

ولا يلزم أن يتمني المؤمن الموت في العاجل، ولكنه يتمنى أن يموت متى ما رضي الله عنه وقبل أعماله.

---

(١) في تفسيره (٢/ ٣٦٢).

ويقول من يتمنى الموت: اللَّهُمَّ توفني إذا رضيت عني، فإن رضيت عني الآن فتوفني.

والفاسق والكافر يَكره أن يخطر الموت على باله، ولا يزال يكرهه ويتجنب أسبابه حتى يأتيه الموت وهو كذلك.

والمؤمن يتمنى أن يموت شهيدًا ولو في العاجل، وقد جاء في «صحيح مسلم»(١) أنّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»**.

وقد كان من دعاء النبي ﷺ: **«أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»**(٢).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّمَا سَأَلَهُ ﷺ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ مُوجِبَاتِ مَحَبَّةِ اللهِ لِلِقَاءِ عَبْدِهِ؛ لِحَدِيثِ: **«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»**، وَمَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى لِذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ.اهـ(٣).



---

(١) (١٩٠٩).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني.

(٣) نيل الأوطار (٢/ ٣٤٣).

«أربعة برامج يومية، لا يخلو المسلم من أحدها، ذكرها الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فانظر أيّ البرامج تسير عليها»:

قسم الله تعالى الذين اصطفاهم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: ظالم لنفسه، خلط عمل صالحًا وآخر سيّئا.

القسم الثاني: مقتصد، اقتصر على الفرائض واجتناب المحرمات.

القسم الثالث: بَرّ، قام بالواجبات والمستحبات، وهجر المحرمات والمكروهات.

القسم الرابع: مقرّب، زاد على ذلك، فأقبل على الله تعالى وبذل كل أوقاته في العبادة والطاعة، مع قيامه بحقوق أهله وأصحابه، ولم ينس نصيبه من الدنيا.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) تفاصيل علاقتهم مع الله تعالى، وحياتهم اليومية، فانظر في أيّ الأقسام أنت.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فأما الظالم لنفسه: فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقَت حظوظُه وشهواتُه إلى قلبه، فحَرَّكَتْ جوارحه طالبةً لها ساعيةً فيها، فإذا زاحمها حقوقُ ربه: فتارة وتارة، فمرة يأْخذ بالرخصة، ومرة

---

(١) في كتابه: طريق الهجرتين (ص٤١٤ ـ ٤٧٧)

بالعزيمة، ومرة يُقْدم على الذنبِ وتركِ الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة.

فهذا حال الظالم لنفسه، مع حفظ التوحيد، والإيمان بالله ورسوله، واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب.

فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران، وهو للأغلب منهما، فإذا ورد القيامة مُيِّز ربحُه مِن خسرانه، وكان الحكم للراجح منهما[١].

وأما المقتصدون: فأدّوا وظيفةَ تلك المرحلة، ولم يزيدوا عليها ولم ينقصوا منها، فلا حصَّلوا على أرباح التُّجَّار، ولا بخسوا الحقّ الذي عليهم.

فإذا استقبل أحدهم مرحلةَ يومه: استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مُباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله له فيها، مشتغلاً بها، مؤدياً واجب الرب تعالى فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات، وأوراد الأذكار والتوجه.

فإذا حضرت الفريضة الأُخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول.

فهو كذلك سائر يومه.

فإذا جاءَ الليل فكذلك إلى حين النوم، يأْخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته، فإذا جاء الصوم الواجب يقوم بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم

---

(١) **والعاقل اللبيب**: لا يعرِّض نفسه للخطر، فقد ترجح سيئاته على حسناته يوم القيامة، فيخسر والله خسارة عظيمة، ويتعرض لسخط الله وشدة عذابه، فبادر بالتوبة والإنابة، وتجاوز هذه المرحلة إلى التي تليها.

فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم(١).

وأما الأبرار المقتصدون: فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام:

١ ـ بإقامة أمر الله.

٢ ـ وعقْد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه.

٣ ـ فهِمَمُهم مصروفة إلى القيام بالأعمال الصالحة، واجتناب الأعمال القبيحة.

فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه:

١ ـ يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمر الله.

٢ ـ فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس، فيركع الضحى.

٣ ـ ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب.

٤ ـ فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصف الأول من المسجد، فأدى فريضته كما أُمر، مكمّلاً لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرب، فينصرف من الصلاة وقد أثَّرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارًا تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه، ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، وقلة الحرص على الدنيا وعاجلها،

---

(١) إذا علمت أنّ الله تعالى يحبّ منك أنْ تسارع إلى مرضاته بأداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات: فلا ريب أنّك لا تتردد في القيام بكلّ عمل يُحبه ربّك الذي خلقك وهداك وأحسن إليه.

وإذا علمت أنّ الجنة منازل ودرجات: فلا أظنك إلا راغبًا في أعلاها وأكملها، فشمّر عن ساعد الجدّ، وقم بكل عمل يُرضي ربك، ليرضا عنك ويُحبك.

قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر، وحبَّبت إليه لقاء الله، ونفَّرته مِن كلّ قاطعٍ يقطعه عن الله، فهو مغمومٌ مهمومٌ كأنه في سجن حتى تحضر الصلاة، فإذا حضرت قام إلى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة(١).

٥ ـ هذا وهم في ذلك كله مراعون لحفظ السنن، لا يُخِلُّون منها بشيء ما أمكنهم، فيقصدون من الوضوء أكمله، ومن الوقت أوله، ومن الصفوف أولها عن يمين الإمام أو خلف ظهره، ويأتون بعد الفريضة بالأذكار المشروعة..

٦ ـ ثم يركعون السنة على أحسن الوجوه، هذا دأبهم في كل فريضة.

٧ ـ فإذا كان قبل غروب الشمس توافروا على أذكار المساء الواردة في السنة، نظير أذكار الصباح الواردة في أول النهار، لا يُخِلُّون بها أبدًا.

٨ ـ فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب سبحانه التي قَسَمَها بين عباده.

٩ ـ فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنة، وهي كثيرة تبلغ نحوا من أربعين، فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله، فهذا منامه عبادة وزيادةٌ له في قربة من الله.

١٠ ـ فإذا استيقظ عاد إلى عادته الأولى.

١١ ـ ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى، وتشييع

(١) اسأل نفسك: هل حالك كذلك في صلاتك؟.

الجنائز، وإجابة الدعوة، والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال، وزيارتهم وتفقدهم، وقائم بحقوق أهله وعياله، فهو متنقل في منازل العبودية كيف نَقَله فيها الأمر.

١٢ ـ فإذا وقع منه تفريط في حقٍّ من حقوق الله بادر إلى الاعتذار والتوبة والاستغفار، ومحوِه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره.

فهذا وظيفته دائمًا.

وأما السابقون المقربون: [فهم] قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وعَمَرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسَرَت المحبةُ في أجزائهم فلم يبق فيها عِرْقٌ ولا مفصل إلا وقد دخله الحُبُّ.

قد أنساهم حبُّه ذكرَ غيره، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه، وقد [انْشغلوا] بحبِّه عن حبِّ من سواه، وبذكرِه عن ذكر مَن سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون إليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلُّق ذلك منهم بغيره.

١ ـ فإذا وضع أحدهم جنْبه على مضجعه صعدت أنفاسُه إلى إلَهِه ومولاه، واجتمع همُّه عليه، متذكراً صفاته العلى وأسماءَه الحسنى، مشاهداً له في أسمائه وصفاته.

فهؤلاءِ قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت العرش وأبدانهم في فرشهم.

٢ ـ فإذا استيقظ هذا القلبُ من منامه صعد إلى الله بهمِّه وحبِّه وأشواقه مشتاقاً إليه طالباً له محتاجاً له عاكفاً عليه.

فحاله كحال المحبِّ الذي غاب عن محبوبه الذي لا غنى له عنه ولا بدّ له منه، وضرورته إليه أعظم من ضرورته إلى النفس والطعام

والشراب، فإذا نام غاب عنه، فإذا استيقظ عاد إلى الحنين إليه، وإلى الشوق الشديد والحبّ المقلق، فحبيبُه آخِرُ خطراته عند منامه وأولها عند استيقاظه.

فإذا كان هذا في محبة مخلوقٍ لمخلوق فما الظن في محبة المحبوب الأعلى.

فأُفٍّ لقلبٍ لا يصلح لهذا ولا يُصدِّق به، لقد صُرِف عنه خير الدنيا والآخرة.

٣ ـ فإذا استيقظ أحدهم وقد بدر إلى قلبه هذا الشأْن، فأَول ما يجرى على لسانه ذكرُ محبوبه والتوجه إِليه واستعطافه والتملق بين يديه والاستعانة به أَن لا يُخْلّي بينه وبين نفسه، وأَن لا يكِلَه إليها فيَكِلُه إلى ضيْعة وعجز وذنب وخطيئة، بل يكلؤُه كلاءَةَ الوليد الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فأَول ما يبدأُ به: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أَماتنا وإليه النشور»، متدبراً لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأَن أحياه بعد نومه الذي هو أخو الموت وأعاده إلى حاله سويًّا سليمًا محفوظًا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات المهلكات.

٤ ـ ثم يقول: «لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْحَمْدُ للهِ وسُبْحَانَ الله وَلا إِلَهَ إِلا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ»، ثم يدعو ويتضرع.

٥ ـ ثم يقوم إلى الوضوء بقلبٍ حاضر مستصحب لما فيه.

٦ ـ ثم يصلي ما كتب الله له صلاةَ محبٍّ ناصح لمحبوبه، متذللا منكسرًا بين يديه.

يرى مِن أَعظم نِعَم محبوبه عليه أَنْ أَقامه وأَنام غيره، وأهَّلَه وحرم غيره، فهو يزداد بذلك محبة إلى محبته.

ويرى أَن قرة عينه، وحياةَ قلبه، وجَنَّة روحه، ونعيمه ولذته وسروره: في تلك الصلاة، فهو يتمنى طول ليلِه، ويهتمُّ بطلوع الفجر كما يتمنى المحبُّ الفائز بوصول محبوبه ذلك.

فهو يتملق فيها مولاه تملق المحب لمحبوبه، العزيز الرحيم، ويناجيه بكلامه، معطياً لكل آية حظَّها من العبودية:

ـ فتجذب قلبه وروحه إليه آياتُ المحبة والوداد، والآيات التي فيها الأَسماءُ والصفات، والآيات التي تعرَّف بها إلى عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإِحسانه إِليهم.

ـ وتُطَيِّب له السيرَ آيات الرجاءِ والرحمة وسعة البر والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يُطَيِّب له السير ويهوِّنه عليه.

ـ وتقْلِقُه آياتُ الخوف والعدل والانتقام، وإِحلال غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيره، المائلين إلى سواه، فيجمعه عليه ويمنعه أن يشرد قلبه عنه.

فواأَسفاه وواحسرتاه: كيف ينقضي الزمان، وينفد العمر، والقلب محجوبٌ ما شمَّ لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إِليها، وما ذاق أَطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم، وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزاً، وموته كمداً، ومعاده حسرة وأسفاً.

٧ ـ فإِذا صلَّى ما كتب الله: جلس مطرقاً بين يدى ربه تعالى؛ هيبة له وإِجلالاً، واستغفره استغفار مَن قد تيقَّن أَنه هالكٌ إن لم يغفر له ويرحمه.

٨ ـ فإذا قضَى من الاستغفار: يصليّ السُّنَّة ويبتهل إلى الله بينها وبين الفريضة، فإن لذلك الوقت شأْناً يعرفه من عرفه، ويكثر فيه من قول: «يَا حَيّ يَا قَيُّوم، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ» فلهذا الذكر في هذا الموطن تأثير عجيب.

٩ ـ ثم ينهض إلى صلاة الصبح قاصداً الصف الأول عن يمين الإمام أو خلف قفاه، فإنْ فاته ذلك قصد القرب منه مهما أمكن؛ فإن للقرب من الإمام تأثيراً في سرّ الصلاة، ولهذا القرب تأْثيرٌ في صلاة الفجر خاصة يعرفه من عرف قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

١٠ ـ فإذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكلِّيَّته على ذكر الله والتوجه إليه بالأذكار التي شرعت أول النهار، فيجعلها ورداً له لا يُخِلّ بها أبداً، ثم يزيد عليها ما شاءَ من الأذكار الفاضلة، أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت فإن شاءَ ركع ركعتي الضحى وزاد ما شاءَ، وإن شاءَ قام من غير ركوع.

١١ ـ ثم يذهب متضرعاً إلى ربه سائلاً له أن يكون ضامناً عليه متصرفاً في مرضاته بقية يومه، فلا ينقلب إلا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربه، وإن كان من الأفعال العادية الطبيعية قلبه عبادة بالنية وقصد الاستعانة به على مرضاة الرب، فهذا عاداته عبادات.

١٢ ـ فإذا جاءَ فرض الظهر بادر إليه مكملاً له ناصحاً فيه لمعبوده، كنصح المحبِّ الصادق المحبة لمحبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيئاً ما، فهو يبذل مقدوره كله في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله؛ ليقع موقعاً من محبوبه، فينال به رضاه عنه وقربه منه.

أفلا يستحي العبد من ربه ومولاه ومعبوده أن لا يكون في عمله هكذا؟ وهو يرى المحبين في أشغال محبوبيهم من الخلق كيف يجتهدون في إيقاعها على أحسن وجه وأكمله، بل هو يجد مِن نفسه ذلك مع مِن يحبه من الخلق، فلا أقل من أن يكون مع ربه بهذه المنزلة.

ومن أنصف نفسه وعرف أعماله استحى من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه لربه وهو يعلم من نفسه أنه لو عمل لمحبوبٍ له من الناس لبذل فيه نصحه ولم يدع مِن حُسْنِهِ شيئاً إلا فعله.اهـ.

إنّ المقربين ـ جعلنا الله منهم ـ يعيشون في جنّةٍ ونعيمِ الدنيا قبل جنةِ ونعيمِ الآخرة، فأجسادهم في هذه الدار، وأرواحهم قد تجاوزت حُجُب السماء، فنظروا إليه بعين البصيرة، واستحضروا جماله وجلاله وعظمته وقربه في جميع حالاتهم، فتلهّفوا إلى لقاء ربهم، واشتاقت نفوسهم إلى سكنى الجنة التي غرسها بيده، وأعدّ لهم فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وكيف لا يتسابقون إليه وهم يسمعون مدحه للمتسابقين إليه بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: وَالسَّابِقُونَ المخلصون الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه، وبذلوا قُصارى جهدهم في طلب مرضاته ﷻ.

فها هي درجات أهل الجنة عُرضت عليك، وأعمالهم سيقت إليك، فاختر أي الأعمال شئت، فأعمالك اليوم تُحدّد مصيرك غدًا، فاعمل ما دمت في دار العمل، ولا يُلهينّك التسويف والأمل.

«ثمرات الأنس بالله تعالى»:

من عاش هذه المراحل الإيمانية، سيعيش بجنةٍ عاجلةٍ قبل جنة الخلد الآجلة، وسوف يُكرمه الله الكريم الرحيم الوهاب بما لم يخطر على باله، وسَيَهَبُ له هبات عظيمة منها:

١ ـ العيشة السعيدة، التي لم يحلم ـ والله ـ بعشرها الملوك والرؤساء، والمترفون والأغنياء، التي فيها الطمأنينة والراحة النفسية العجيبة.

٢ ـ القناعة التي بها يرى أنه أغنى الأغنياء، وأعزّ من أكابر الملوك والرؤساء.

٣ ـ الرضا بالأقدار المؤلمة، والمصائب الشديدة، والكربات الأليمة، التي لولا ما في قلبه من الرضا لانهارت قواه، وتمكّن منه العدوّ وسباه.

٤ ـ خفّة العبادات عليه، حتى لا يجد فيها تعبًا ولا نصبًا، إلا ما كان من الطبيعة البشرية.

وهذه قد تقدّم الحديث عنها بإسهاب.

٥ ـ البركة التي لاحدّ لها، والنماء والزيادة في علمه، ودينه، وعمله، وقبول الناس له.

حتى إنه يسبق غيره في التحصيلِ والأثر الطيب النافع، ولو كان غيره أقدم منه.

«فَإِنَّ بركَة الرجل: تَعْلِيمه للخير حَيْثُ حلّ، ونصحه لكل من اجْتمع بِهِ، قَالَ الله تَعَالَى إِخْبَارًا عَن الْمَسِيح ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾؛ أَي: معلمًا للخير، دَاعيًا إِلَى الله، مذكرًا بِهِ، مرغِّبًا فِي طَاعَته.

وَمن خلا من هَذَا فقد خلا من الْبركَة، ومحقت بركَة لِقَائِه، والاجتماع بِهِ؛ بل تمحق بركَة من لقِيه وَاجْتمعَ بِهِ»(١).

٦ ـ تسخير الناس له، حتى يظنّ أن الكون كلّه سخّر له وحده.

فيقيّض الله له من يقوم بخدمته ومساعدته كما قام بخدمة دينه ومساعدة عباده الصالحين، والجزاء من جنس العمل.

٧ ـ القبول والمحبة في قلوب الناس.

كما قَالَ تعالى عن عباده الصالحين: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ «أَيْ: يُحِبُّهُمْ، وَيُحَبِّبُهُمْ إِلَى عِبَادِهِ»(٢).

«فطوبى لمن أقبل على الله بكليَّته، وعكف عليه بإرادته ومحبته، فإنَّ الله يُقبل عليه بتوليه، ومحبته وعطفه ورحمته، وإن الله سبحانه إذا أقبل على عبد استنارت جهاته، وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال، وآثار الجمال، وتوجه إليه أهلُ الملأ الأعلى بالمحبة والموالاة؛ لأنهم تبعٌ لمولاهم، فإذا أحب عبدًا أحبوه، وإذا والَى وليًّا والَوْهُ.

إذا أحب الله العبد نادى: **«يا جبرائيل إني أُحب فلانًا فأحبه،**

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٣٢).

فينادي جبرائيل في السماءِ: إِنَّ الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يحبه أهل الأرض، فيوضع له القبول بينهم»[(١)]، ويَجْعلُ الله قلوب أوليائه تَفِد إليه بالودِّ والمحبة والرحمة، وناهيك بمن يتوجه إليه مالك الملك ذو الجلال والإكرام بمحبته، ويقبل عليه بأنواع كرامته، ويلحظ الملأُ الأعلى وأهل الأرض بالتبجيل والتكريم!

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم»[(٢)].

٨ ـ العزة والقوة إذا انتُهكت محارم الله، فمع شدة ازدرائه لنفسه، وتواضعه للناس صدقًا لا تصنّعًا، إلا أنه من أقوى الناس إذا انتُهكت محارم الله، ولا يخاف في الله لومةُ لائم.

وحينما يحصل موقف فيه انتهاك لحرمات الله، والموقف يستلزم الصدع بالحق، تظهر عليه الشدة وقوة البأس، حتى يتعجَّب من يعرفه ويعرف حلِمْه وصبرَه وتواضعَه، ويقول: لقد خرج عن سمته وعادته!

والحق أنه لم يخرج عن ذلك؛ بل كانت قوته وبأسه كامنةً بين جنبيه، لا يخرجها إلا عند الحاجة إليها، كالسيف يكون في غمده، لا يُخرجه صاحبه إلا عند الحاجة إلى الطعان والقتال.

فهذا شيخ الإسلام الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يعُرض على السيف خمسَ مرات لا يقال له: ارجعْ عن مذهبك، لكن يقال له: اسكت عمّن خالفك، فيقول: لا أسكُتُ[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١٨٢).

(٣) تهذيب سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٣٧).

٩ ـ حسن الأخلاق، ولين الطبع، والرفق واللين والرحمة، التي لا تُكتسب بالعلم والتدرب فقط.

١٠ ـ كُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، كما ثبت في «الصحيحين»[١] أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللهَ**».

فتأمل كيف أنّ كلّ حسنةٍ يعملها المحسن من صلاة، وذكر لله، وقراءة قرآن، وصدقة، وبر، يضاعفها الله له إلى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ!

فكم هو الفارق بين مَن حسن إسلامه وبين غيره، ولو لم يكن إلا هذا الفضل لكفى.

١١ ـ نضج العقل، واكتساب الحكمة، وصواب الرأي، ودقة الفهمِ، وبعد النظرِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن كان الرجل خبيرًا بحقائق الإيمان الباطنة، فارقًا بين الأحوال الرحمانية، والأحوال الشيطانية: قذف الله في قلبه من نوره، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾. اهـ[٢].

ويُعطى قوةً في الفراسة، فقوة الإيمان واليقين: تُنْبِتُ فِي أَرْضِ

(١) البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢١٧).

الْقَلْبِ الْفِرَاسَةَ الصَّادِقَةَ، «وَهِيَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي الْقَلْبِ، يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ.

وَسَبَبُهَا: نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ، يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ.

وَحَقِيقَتُهَا: أَنَّهَا خَاطِرٌ يَهْجُمُ عَلَى الْقَلْبِ يَنْفِي مَا يُضَادُّهُ، يَثِبُ عَلَى الْقَلْبِ كَوُثُوبِ الْأَسَدِ عَلَى الْفَرِيسَةِ»[١].



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٤٨).



الخاتمة

أسأل الله تعالى أن يجعل ما كتبت خالصًا لوجهه، وأن يكون حجةً لي لا عليّ، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.



الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

طُبِعَ لِلْمُؤَلِّفِ

١ ـ إرْشادُ السَّاجِدِ بأسْبابِ الخِلَافِ والتَّقاطُعِ في الْمَسَاجِدِ.
٢ ـ الْإِفَاضَةُ في أَحْكَامِ الْحَيْضِ والنِّفَاسِ والْاسْتِحَاضَةِ.
٣ ـ حَيَاةُ السَّلَفِ بَيْنَ الْقَوْلِ والْعَمَلِ. (الطبعة الثالثة).
٤ ـ بُيُوتٌ تَئِنُّ مِنَ الْمَشاكِلِ والْخلافَاتِ، الأسْبَابُ والْعِلَاجُ.
٥ ـ حُقُوقُ الصَّدِيْقِ وكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ.
٦ ـ كَيْفَ تُرَبِّيْ أَبْنَاءَكَ؟ ثَلَاثُونَ قَاعِدَةً تُوصِلُكَ إلى أحْسَنِ وأَنْجحِ الطُّرُقِ فِي التَّرْبِيَةِ.
٧ ـ آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه.
٨ ـ الحياةُ الزّوجيّةُ السّعيْدَةُ، قَوَاعِدُ وَحُقُوقٌ وَعِلاجٌ لِلْمُنغّصاتِ.
٩ ـ عِلْمُ تَعْبِيرِ الرُّؤَى، بَحْثٌ تَأْصيْلِيٌّ عِلْميٌّ تَطْبيقِيّ.
١٠ ـ الْمَعيْنُ الْجَارِي في اسْتنباطِ الفَوَائِدِ واللطَائِفِ مِنْ صَحِيْحِ الْبُخَارِي.
١١ ـ مَنْهَجُ الصَّحَابَةِ والسَّلَفِ الصَّالحِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ فَتَاوَىَ الْمُفْتِينِ والرَّدِّ عَلَى الْمُخْطِئِين.
١٢ ـ تَهْذِيْبُ كِتَابِ الْمُوَافَقَاتِ لِلْإِمَامِ الشَّاطِبي، مَعَ التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ.
١٣ ـ مَجالسُ شَهْرِ رَمَضَانَ.
١٤ ـ قِصَصِي مَعَ الْمُلْحِديْن والْمُشَكِّكيْن والْمُوسْوِسيْن، معَ بَيَانِ طُرُقِ إقْنَاعِهم وَهِدايَتِهم.
١٥ ـ الْمَسَائِلُ الْمُهِمَّةُ فِي التَّجْويدِ والْأحْرُفِ السَّبْعةِ.
١٦ ـ عِبَاراتٌ أَثَّرَتْ عَلَيَّ وَغَيَّرَتْ في حَيَاتِي.
١٧ ـ عَبْقريَّةُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.
١٨ ـ تَقريبُ فَتَاوى ورسائل شَيْخِ الإسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ.
١٩ ـ بَوَّابَةُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ.
٢٠ ـ صِناعَةُ طَالِبِ عِلْمٍ مَاهِرٍ.
٢١ ـ صِنَاعَةُ خَطِيبٍ مَاهِرٍ.
٢٢ ـ الْأُنْسُ بِاللهِ تَعَالَىَ.